

أحمد الدوسري

# وتابع ذاكرة

مؤسسة  
دار الأوقاف  
للثقافة والنشر بدمشق

وَيَاغُ ذَاكِرَةُ

وباء ذاكرة

أحمد الدوسري

*A Memory Plague*

*By Ahmad Al-Dosari*

الطبعة الأولى: يونيو - حزيران، 2021 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain2021

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 49 - 6

(c) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخة أصلية من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أي من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: +961 1 345683 / +961 1 541980

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

✉ info@daralrafidain.com    f dar alrafidain  
✉ daralrafidain@yahoo.com    Dar.alrafidain  
🌐 www.daralrafidain.com    @daralrafidain

رواية

# وَبَاءُ ذَاكِرَةِ

أحمد الدوسري



[www.daralrafidain.com](http://www.daralrafidain.com)

تحذير 7

الفصل الأول: رجل موقّت 9

الفصل الثاني: تبادل هويّات في يوم سيّء 33

الفصل الثالث: ثلاثة رفاق 57

الفصل الرابع: امرأة 69

الفصل الخامس: المتحف الوطني 79

الفصل السادس: غدا تشرق الشمس 85

الفصل السابع: ديناصور طروادة 91

الفصل الثامن: الكيمتريل 95

الفصل التاسع: كمين 105

الفصل العاشر: الوطن فخ مُحكّم 111

الفصل الحادي عشر: تكدّست الجثث مثل علب فارغة 119

الفصل الثاني عشر: أحصنة طروادة 129

الفصل الثالث عشر: أحلام في العناية المركّزة 135

الفصل الرابع عشر: حرب القهوة 147

الفصل الخامس عشر: الحدود الروسية 151

الفصل السادس عشر: عقارب الساعة ترجع إلى الورااء 157

الفصل السابع عشر: أبطال وجبناء! 167

الفصل الثامن عشر: الرجل الذي بلا اسم 173

الفصل التاسع عشر: الذئاب والصامتون 181

الفصل العشرون: يبيع ذاكرته 189

الفصل الواحد والعشرون: رقصة زوربا اليوناني 195

الفصل الثاني والعشرون: تثبّت من موتك 203

الفصل الثالث والعشرون: الوصول 213

الفصل الرابع والعشرون: النهاية 221

تحذير

الوباء بركة...

جميعنا الآن لا منتمون!

## الفصل الأول

### رجل موقّت

أمسك الرجل بجبينه ماسحاً حَبَّات العرق التي بدأت تتحدّر من منبع نهر عند مفرق شعره الغارق في الضوء وهو يلهث. بعيب خلقي ولد معه لم يستطع أن يرى الشمس مباشرة وهي تنعكس فوق وجهه مثل سكاكين صغيرة. نسي ذلك العيب الآن. لفّ حول نفسه محاولاً أن يتذكّر المكان الذي هو فيه. غابات من الوجوه السامقة والمتردّية كانت تعبر الأرصفة أمامه بانسيابية مخيفة. حاول أن ينظر إليها على نحو منظم وهي تتلاطم بضجيج فوضوي. لم يأبه به أحد. ناس هذا الزمن لا يبهون كأنهم ولدوا لا مبالين. اللامبالاة علامة الجودة وعلى ملامحهم فوضى عارمة. اجتاز الطريق وسط أبواق السيارات وتقادى سيارة مسرعة. شتمه السائق:

– ابن الكلب!

لم يكن يعرف إن كان بالفعل ابن كلب أم لا. انشغل بصوت السائق. كان معيّراً.

أكمل طريقه نحو مركز شرطة المدينة في شارع جانبي دلّه عليه أحد المارة، وهو يتأفّف كأنه ملسوع: أوه دوّختونا من الأسئلة. نظر إلى لافتة مركز الشرطة من فوق إلى تحت مثلما لو كان على قمة كرين تصوير أفلام. شاهد رجال شرطة يدخلون وآخرين يخرجون وهم يلمعون. وجوه بعضهم غاضبة والبعض الآخر وجوههم غير معبّرة. اجتاز عتبة الباب الرئيسي. تردّد للحظات غير أنه مضى إلى الداخل حيث يجلس شرطي في العقد الخامس من عمره في عينيّه آثار وظيفة مرهقة وراء طاولة الأحوال. يكاد لا يرمش. رمقه بنظرة ملولة وكسلى. لم يهتم بحضوره. كأنه لا أحد. خشي أن يكون لامرئياً. وقف الرجل حتى عنقه وسط بحيرة من الحيرة. أنقذه منها دخول شرطي آخر أكثر حيوية تشير تفاصيل وجهه المزهر إلى أنه لم يتجاوز الثلاثين. وحيويّة بادره:

– نعم. هل من خدمة؟

ازداد ارتباك الرجل فاعتقد الشرطي بأن في الأمر مشكلة كبيرة:

– حسناً تعال معي.

قدّر الرجل بأن الشرطي في مثل طول قامته. لم ير نفسه كاملاً حتى الآن. اعتقد بأنه مجرد صورة شخصيّة نصفية. شرطي الأحوال لا يزال غير مكترث به. بدا كأنه يهشّ ذباباً غير مرئي. ترك نفسه للشرطي الشاب أن يقوده إلى غرفة في آخر الممرّ لا تحتوي سوى على كرسيين وطاولة:

– أجلس هنا... شاي؟

- لا. شكراً

- ما الأمر؟ كيف أستطيع أن أخدمك؟

الرجل بتلعثم شديد وبشفتين مزبدتين:

- أسمع. أنا... لست متأكداً جداً من الموضوع.

- لست متأكداً ممّذا؟

- أنا في ورطة؟

- ونحن هنا من أجل ذلك؟

رفع الشرطيّ جبينه كأنه يستعدّ لمصيبة اعتاد لسنوات أن يسمع أمثالها.

أردف بما يشبه الملل:

- ما هي ورطتك بالضبط؟ نحن أدمنا المصائب والمشاكل هنا. أول مكان في هذا البلد يسمع بالمصائب، وبعدها وسائل الإعلام. ضحك مؤكداً للرجل بأنه يمزح. مضيفاً بأسنان لامعة كأنها منقوعة في الثلج منذ البارحة: هات ما لديك.

- يبدو أنني قد فقدتُ الذاكرة؟ قال الرجل بارتباك وعلى وجنتيه فصوص عرق.

نظر كلُّ منهما في عيني الآخر. انتظر الرجل ردة فعل الشرطي، لكن هذا الأخير استمرّ ينظر في عينيه مباشرة كأنه ينظر إلى موت في عيني شاة مذبوحة. ثم:

- فقدت ذاكرتك؟ قال غير مصدّق.

- نعم.

أجاب الرجل مباشرة وكأنه قد ارتاح من همّ كبير وبدأ يمسخ شفتيه كما لو كان قد ارتشف للتوّ من ماء أو بيرة.

- هل تعني تماماً؟

- نعم.

- ومنذ متى؟

- لو كنت أعلم لما أتيت إلى هنا؟

- حسناً معك حق. ما اسمك؟ عبث بكابه الأزرق على الطاولة وهو يدور به بين أنامله.

- هل تمزح؟ قلت لك بأنني قد فقدت الذاكرة!

- يعني أنك لا تتذكر حتى اسمك؟

- نعم...

- حسناً... أنظر في بطاقتك الشخصية؟ أليس لديك بطاقة شخصية؟

- أظن... ولكنها الآن ليست معي!

- وأين هي؟

- لو كنت أعلم لما كنت الآن هنا!

نظرَ الشرطي وكأنه غير مصدق. أشاح بوجهه الذي أصبح الآن منتفخ الأوداج ومحمرًا وهو يتمتم في سرّه: هذا الذي كان ينقصني هذا اليوم. ألا يكفي نكد زوجتي منذ الصباح الباكر.

استدرك الرجل لطرده الحيرة التي بدأت ترتسم على وجه الشرطي:

- ربّما وضعتها في سيارتي ونزلت إلى الشارع. ربّما خرجت من المنزل دون بطاقة؟ لا أعلم في الحقيقة. لا أعلم من أين أتيت بالضبط. من أيّ جهة من جهات هذا العالم. احترت فأنا منذ ساعات طويلة أُلّف في هذه الشوارع في مدينتكم دون جدوى. مدينة ملتوية الطرقات، مزدحمة، مسكرة، ومدوّخة. الناس فيها كأنهم ثملون. خلقهم ضيق. أخيراً قرّرت أن أتاكم؟ هل تستطيع مساعدتي؟ قال ذلك وهو يحدّق في عيني الشرطي بطريقة من نجا للتوّ من زلزال محالاً إثارة شفقتة.

- حسناً. ضيق الشرطي عينيه ثم نفض رأسه كما لو كان قد خرج للتوّ من تحت الدوش. وسّع عينيه ثانية مستجمعاً رباطة جأشٍ قلقةً: تقول مدينتكم؟ إذن من أين أنت؟

- لا أدري. لم أستطع التعرف على المدينة. أعني أشعر فيها بالتيه. أرجو أن تفهم ما أعني.

- لا تحمل هوية ولم تتعرف على هذه المدينة! أممم.

حكّ الشرطي ذقنه غير الحليقة منذ أسبوع، ثم أخرج علبة سجائره المارلبورو الحمراء واستلّ سيجارة وضعها في فمه، وقبل أن يشعلها من ولأعته تذكر أن يقدمّ واحدة للرجل:

– سيجارة؟

اضطرب الرجل بشدّة حتى يمكن التتبؤ بتعرق سيحيل وجهه إلى وجه رياضي خرج للتوّ من جلسة سونا في أعقاب تمارين رياضيّة منهكة.

– ما بك؟ ألا تدخنّ؟

– في الحقيقة لا أدري إن كنت سأدخنّ أم لا؟ أشعر فقط بأنني أرغب بالتدخين.

– يعني نسيت إن كنت مدخنًا أم لا؟ ضحك الشرطي وهو يرجع إلى الوراء رافعا رأسه إلى أعلى.  
قال:

– هل يُعقل؟

– لا أدري...

– أحسن. تصدّق بودّي لو فقدت الذاكرة حتى أتخلّص من التدخين؟ هذا العالم السافل وضع لنا مخدّرات في وسط تبغ هذه السجائر. لا أشك في ذلك أبداً. إنها دورة تجار مافيا بلا ضمير. فجّار. ثم نمرض فنتلقفنا مافيا الأدوية وهكذا من مافيا إلى مافيا. لا تربح من كل هذا سوى المقابر!

أشعل سيجارته نافثاً دخانها إلى أعلى بحنق بالغ يقطر من عينيه المنكمشتين مثل عيني قط.

– حسنا... النيكوتين سيتكفل لوحده بإخبارك. أنفخ على باطن يدك ثم شمّها. حينها ستعرف إن كنت مدخنًا أم لا؟ هذه العاهرة تدمّر صحتي.

– قهقه بصوت عال ثم اعتدل في جلسته وهو ينفخ دخان سيجارته في الهواء:

– والآن... أين وصلنا؟

– ودون أن ينتظر إجابة الرجل الذي لم يتجاوب معه في حكاية شمّ باطن يده أرفد منظّمًا إجاباته السابقة:

– تقول بأنك قد فقدت الذاكرة، وليس لديك بطاقة تحدّد هويّتك، ولا تعرف إن كنت تدخنّ أم لا؟ كما أنك لا تعرف أيضاً منذ متى، ولا حتى اسم هذه المدينة؟

- تصاعدت حلقات الدخان ووصلت إلى أنف الرجل، وشعر بتسرّب النيكوتين إلى رئتيه وشرابينه محفّزاً الرغبة بتدخين سيجارة لكنه خجل الآن من طلبها من الشرطي. أحسّ بأن كلامه عن نسيان التدخين لا معنى له. وساذج. وينمّ عن ارتباك وضياع. قال:

- لا!

شعر الشرطي بالإثارة التي ستغيّر مزاجه وستنسيه همّ ونكد زوجته هذا الصباح. اعتدل مرتاحاً جداً ثم قال:

- طيّب عمّاذنا نسألك إذن؟ أليس لديك أيّ دليل على وجودك؟ أعني أنت لا تتذكّر أيّ شيء عن كيانك أو هويّتك أو وجودك؟

أبداً؟

ولا أيّ خيط قد يقودنا إلى هويّتك؟

- أبدا... سوى... سوى

سوى ماذا؟

- لا أدري. سوى حلم صغير في قاع الذاكرة المنتهية هذه.

- ما هو؟ ها... أخبرني.

بدا أن السوى هذه قد حرّكت الماء الراكد في خيال الشرطي، وحوّلتها إلى محقّق وبدا أنها ستتعش فضوله، خاصة مع السيجارة التي أضفت نكهة على الحوار بالنسبة له. أحسّ بأنه دخل إلى دائرة الاستمتاع بالقصة الغريبة. لا يجد المرء نفسه كل يوم أمام فاقد ذاكرة. قال في نفسه، وفي باله بأنه سيتسلّى مع فاقد الذاكرة هذا بدلاً من حوادث الدهس والقتل والاعتصاب. شكله من الأشكال المألوفة. ملامح وجهه مختلطة. أظن بأنه هجين.

قال الرجل فاقد الذاكرة وقد انكشمت ملامح وجهه:

- أراني في حيّ صغير ألعب مع مجموعة من الأطفال.

- تلعب؟ أطفال؟ هل كنت طفلاً في الحلم أم كنت كبيراً بالغا؟

- طفل وكبير؟

- حيرتني. لا شيء يشير إلى من أنت حتى في هذا الحلم؟ أوف... نفخ دخانه في الهواء وهو يهز رأسه مترقباً، كأنه يشاهد فيلم مطاردات وتشويق وإثارة أو جريمة.

- كأني الطفل وكأني أبوه! لا أدري. هكذا خيل لي في الحلم. قال الرجل الفاقد للذاكرة.

- ماذا يعني هذا؟ وهل هو حلم يقظة أم حلم حقيقي؟ قال الشرطي بتذمر.

رفع الرجل حاجبيه إلى أعلى مثل جناحي صقر دلالة على النفي. نهض المكان عن الشرطي وهو ينفث الدخان صانعاً منه دوائر للحيرة وللغثيان، إذ لم يمر عليه موضوع مشابه من قبل، وفكر لو هلهة بأن هذه الحالة ربّما كان مكانها الطبيعيّ المستشفى وليس مركز الشرطة. ما فائدة التحري عن مجهول؟ توجه إلى باب الغرفة ثم قال للرجل وقد اتخذ حاجباه وضعية صقر محلّق في السماء:

- هل تعني بأن قوّة ما قد عملت لذاكرتك Delete قال هذه الكلمة الإنجليزية ومطّها ساخرأ. ثم حك رأسه كأنه يبحث فيه عن تأكيد.

!.....

لم يجب الرجل الذي تحوّل وجهه إلى خارطة إنهاك لا تدلّ على شيء. وبخ ذاكرته الفاشلة بحسرة.

- حسناً... انتظر. سأحدّث إلى الضابط وسأرى ماذا يمكن أن نفعل؟

ربما لا يجيد اللغة الإنجليزية ولم يفهم ديليت هذه!

قال الشرطيّ في نفسه وهو يخرج إلى المجهول، فيما بقي الرجل وحيداً لا يستطيع أن يفكر بشيء سوى أنه كائن في مهبّ الريح، طفل حيوان حديث الولادة لا يعرف ماذا يفعل. ولا من يساعده. ولا في أيّ شيء يساعده. ليست مشكلته مادّية يمكن حلّها. وبدا له بأنه قد تحوّل إلى كائن يفكر في غرائزه فقط. الإنسان دون ذاكرة تجعله يفكر بالأشياء ويتذكّر الماضي ويستوعب الحاضر لكي يفكر بماذا سوف يفعل في المستقبل، يتحوّل إلى كائن لا يشعر سوى بالعطش والجوع. وبالآلام ربّما. ففكر بأنه على الأقلّ لم يفقد النطق وإلاّ لما استطاع أصلاً إعلان مشكلة ذاكرته السلبية أو التي أمحت فجأة وربما منذ زمن لم يعد يدرك منذ متى ولا كنهه.

انقضت دقائق رهيبة على الرجل الذي لم يكن فقط بلا ذاكرة بل وبلا اسم أيضاً. ارتعشت يده اليمنى بعنف استغرب له. ففكر بالأمر أيضاً محدّثاً نفسه بأنه بلا اسم مجرد شيء ليس إلا. وكلمة كائن لا تنطبق عليه. شعر بالأسوأ: ماذا لو كان قد ولد أصلاً بلا ذاكرة؟ ولد بعيب خلقي في رأسه: بلا ذاكرة! وأنه يتوهم الآن بأنه قد فقد الذاكرة. كالذي يتوهم بأنه مريض وهو أصلاً ليس مريضاً. ربما ولد لديه للتوّ وعي الوهم. وماذا لو كان عمره مجرد ثلاث ساعات فقط؟ بدليل حلمه الوحيد، حلم اليقظة، الذي لا يتذكّر فيه سوى نفسه وهو يلعب مع أطفال غريبين بسحنات غير محدّدة. ثم فجأة

يخرج له رجل سبعيني السحنة والمنظر يراقبه من طرف عينه بنظرة جانبية. وعندما يقترب منه يقول له دون لف ولا دوران: أنت أيها الطفل. أنت أنا. دعني أرى نفسي. ليتني بقيت حيث أنت. هل تفهمني؟ يجلس على حافة الرصيف ويضع رأسه بين كفيه الباردين ولا يعود للنظر إليه حتى ينتهي الحلم.

قطع تدفق خيالاته دخول الشرطي ومعه الضابط متزيّبا بثلاث نجيمات صغيرة على كتفه تعني رتبة نقيب حسب وزارة الداخلية في هذه المدينة التي نسي أيضاً اسمها. لم ينهض الرجل من مكانه، فهو إلى جانب كونه مرهقاً لا تهمة الرتب، لأنه بلا ذاكرة، وربما لو كان يعرف من هو لكان الآن قد قفز من مكانه لهذا الضابط. شعر الآن بأن الإنسان بلا هوية أو ذاكرة يلغي الرتب والطبقات بينه وبين الناس. ارتاح لأول مرة منذ بداية هذا الصباح لمعنى من معاني هذه الحياة الجديدة عليه. الحياة المتعطسة. فقدان الذاكرة يلغي كل شيء. يسلب من الحياة عطرساتها. قوة تأثيرها. هل يلغي الخوف أيضاً. ابتسم لنفسه ابتسامة خفية غير ظاهرة على وجهه الذي بدأ يأخذ شكل سؤال أو علامة استفهام.

توجّه الضابط إلى الكرسي وجلس، بينما بقي الشرطي واقفاً. هذه هي الحياة: واحد واقف والآخر جالس. بدا أنف الشرطي من أعلى أكبر بكثير مما عليه في الواقع. قال الضابط الذي وضع قبّعته الزرقاء مثل لون البحر فوق الطاولة المصنوعة من خشب رخيص، كانت الدولة قد تعاقدت على صناعتها مع الصين. الصين تصنع كل ملابس رجال الشرطة في العالم، مع قبّعاتهم، وقسم استخباراتها يعرف مقياس كل شرطي في هذا العالم، لاسيّما العالم الثالث:

- كيف الحال؟

- لا بأس.

أجاب الرجل باقتضاب وهو ينظر في وجه الضابط متفرباً كما أنه هو المحقق. هذا الضابط وجهه مألوف. هل عرفته من قبل؟ هجس في سرّه. بدا الضابط كما لو كان قد خرج للتوّ من حفل رماية. أكمل هذا الأخير:

- حسنا تقول بأنك قد فقدت ذاكرتك؟ ولكن متى حصل ذلك بالضبط؟

قال الرجل في سرّه: إن هذا الضابط غبي. كيف لي أن أعرف متى وأنا فاقد للذاكرة؟ تهياً له بأنه قد قال هذه الجملة الأخيرة. انكمش. لكنه لم يقلها. انتظر الضابط لإجابة الرجل كان دون جدوى. فسأل سؤالاً آخر مغيراً من نبرة صوته إلى القرار الذي فيه ثقة أكبر:

ألا تتذكّر حتى منزلك؟ وانتظر ردّة فعل الرجل الفاقد للذاكرة.

شعر بأنه قد جاء برجله إلى هذا المكان. فليتحمل إذن ما يُطرح عليه من أسئلة. هذه طبيعة رجال الأمن عموماً. لماذا عليه أن يشعر بالضيق. ردّ بحيرة وارتباك:

يا سيدي الضابط لو كنت أتذكر منزلي لما جئت إليكم هنا؟

تنفّس الضابط بضيق متذمّراً، وهو يدحرج جسده الرسميّ إلى الممرّ يتبعه الشرطي وهو يقول:

– ربّما من الأفضل أن نحولّه إلى المستشفى. فماذا سنفعل مع رجل فاقد لذاكرته؟

– لكن سيدي نحولّه بأيّ اسم؟

– اذهب أنت معه إلى هناك دون اسم. فقط قيده ضدّ مجهول!

قال الرجل الفاقد لذاكرته في سرّه لماذا يرتدي ضابط شرطة بدلة ضيقة إلى هذا الحد؟ بدأ الرجل يوجد لنفسه مشكلات. لا يجلس تفكير الإنسان مرتاحاً دون أن ينشغل بمشكلة. شغل نفسه بضيق بدلة الضابط. أحسّ بالتعاسة من ملاحظته المتطابقة مع الواقع: جسد الضابط المتكثّل في طبقات دهنية. شاربه غير متساو من الناحيتين. مائل أكثر من الجهة اليمنى. خداه ممتلئان كثيراً وأنفه أفتس. بشرته مسمرّة أكثر من اللازم. بشعة. أراد أن يكمل استرجاع أوصاف الضابط لكنه نظر إلى الجدران. لم يعجبه لون الطلاء. قال في نفسه: هل يعقل هذا اللون؟ لون مائل للبنّي في مخفر شرطة؟ انشغل أيضاً بمشكلة الطلاء. فعقله فارغ.

لم تبدُ على الضابط أمارات اهتمام كبير بحالته. رجل فقدَ ذاكرته للتوّ أو هذا الصباح أو ليلة البارحة أو السنة الماضية. ما الذي سيعنيه هذا بالنسبة له. بالتأكيد لا شيء. فلدّيه قضايا أهم. قتل، مخدرات، فاشنستا، غسيل أموال، اغتصاب، سرقة، اعتداء، اختلاس، سطو مسلح. أما مرض فقدان الذاكرة فليس جريمة عموماً أو جنحة أو جناية تسبّب بها ابن كلب من هؤلاء المتاعيس السابق ذكرهم لكي يهتمّ بها ضابط نقيب بثلاث نجوم مشعّة على كتفه كالصباح الجميل نالها بعرق جبينه على مدى تسع سنوات. يعشق الضابط فهد، ناداه أحدهم باسمه عندما دخل إلى الممر، قد يكون شقيقه، ضرب المتاعيس وتأديبهم. هذا هو التحدي الذي يعيش من أجله. تنظيف الوطن من هؤلاء السفلة والمنحطين، حتى وإن كانوا محميين وسيخرجون فيما بعد بكفالة، أو يتم حفظ قضاياهم. يشعر بلذة القوة هنا في هذا المكان بكل مقاييسه المنتقاة بعناية ودقة مترakمة من عشرات السنين. حتى ودّ لو أنه لا يفارق هذا المكان أبداً. يعيش فيه ليل نهار. يسجّل الأهداف في مرمى كل هؤلاء الأشرار حتى وهو يعرف بأن الحكم سيلغي كل هذه الأهداف. يذهب كل ساعتين تقريبا بنفسه لكي يتفقد الزنازين. يهزّ رأسه رضا عن نفسه المتوتّرة والغاضبة. يجب أن يرى أحداً في الزنزانة لكي يشعر بأنه يقوم بأداء واجبه على أكمل وجه. منتقماً من صورته في البيت. يقول دوماً أمام الشرطة بمناسبة وبلا مناسبة بصوته المبحوح قليلاً: هذه المدينة اللعينة انفجرت فيها المشاكل كما تنفجر دمّة كبيرة. النقيب فهد لديه ذاكرة حديدية تمكّنه من تذكّر أسماء ووجوه كل المجرمين. وحتى غير المجرمين. لا

يمرّ عليه أحد إلا وخزن معلوماته في ذاكرته الفولاذية. حتى أن رجال الشرطة أسموه بالنقيب فهد الفولاذ. يصرخ:

– أين المتهم سعد؟

يجيبه شرطي من غرفة مجاورة: نحقق معه هنا سيدي.

يطمئن إلى أنه في قبضته. يتنفس الصعداء كما تتنفس الدببة في الغابات هواءً منعشاً.

سار الضابط فهد الفولاذ بخطى خالدة نحو آخر الممرّ لمبنى كبير تمّ تشييده في أزمنة صعود النفط المفاجئ، وتحديث الدول رغماً عنها، وسط طرطقة كعبيه علامة الحياة الرسمية. بينما تبعه الشرطي حتى النهاية محاولاً أن يفوز بكلمة من الضابط تريحه أكثر من شحن هذا المسكين إلى المستشفى، ولكن دون جدوى. فالضابط كان حاسماً، واستدار فجأة نحو الشرطي:

– لدينا مهمّات أهم من فقدان ذاكرة رجل مجهول! توجد جريمة قتل، امرأة قتلت زوجها بمساعدة عشيقها، ومطلوب منّي رفع تقرير لمكتب وكيل الوزارة. ثم تحويلها مع عشيقها إلى النيابة. أضاف:

– هل تعرف. لم أتعرف على هذا الرجل الفاقد لذاكرته بعد. غريبة! كيف لم تمرّ عليّ ملامح وجهه من قبل؟

بلع الشرطي الأمر ونظرة عيني الضابط المفترستين، وشعر فجأة بأنهما قد تسلّلا عبر الهواء إلى شرايينه. أحسّ بالمرارة تتنمّل في جسده الرسمي. خمّن الشرطي في سرّه بأن النقيب فهد لن يصل إلى رتبة مقدم. ستغتاله الدولة العميقة بأيّ تهمة وتتخلّص منه. يا إلهي ماذا لو وصل هذا الضابط إلى رتبة لواء؟ بصق النقيب في سلة المهملات وهو يقول: العشاق في هذا الزمان لا يعشقون إلاّ المتزوجات! اللعنة! ثم يحرضونهنّ على قتل أزواجهن! أيّ نوع من العشق الرخيص الساقط هذا؟ هل الطلاق مكلف إلى هذه الدرجة التي أصبح فيها القتل أسهل وأرخص من الطلاق! اللعنة! أشغلونا أولاد وبنات الكلب! أطلبن الطلاق ثم تزوجن من عشاقكنّ عليكنّ اللعنة.

مسح وجهه براحة يده اليسرى وهو يقول: سافلات!

أيّده الشرطي بصوت مكتوم: سافلات. وفتح عينيه على اتساعهما. ثم عاد إلى الغرفة ليجد الرجل في غاية الاسترخاء عكس ما كان توقّعه وهو في طريقه إليه.

– حسناً!

قال الشرطي نافخاً صدره بشهيق طويل مشوب بحسرة وهو يشعل سيجارة أخرى من لهيب داخلي، وقد عقد جبينه عقداً مريرة:

– سنذهب إلى المستشفى لنرى ما يمكن أن نفعله لك يا سيد... لنقل مجازاً الآن: سعيد. مثلاً! ما رأيك بهذا الاسم المؤقت؟ أعني حتى معرفة اسمك الحقيقي. أتوقع لك نهاية سعيدة. تفاعل.

انتظر ردة فعل الرجل. غير أن هذا الأخير بدا عكس كل التوقعات الكارثية في مثل هذه الحالات.

– سعيد... وأنا في مثل هذه الحالة؟ حسناً. لا بأس. فليكن.

– جميل. إذن فلنذهب.

استسلم الرجل لمصيره. وخرج من مركز الشرطة على الأقل باسم محدد ومؤقت. فكّر بذلك وهو يتجاوز عتبة السلطة. فتح باب سيارة الشرطي الشيفروليه الإمبالا، زرقاء اللون كالسماة الفاترة، وسط ضجيج الشوارع وأبواق السيارات الهادرة على الأرصفة، وانطلقا إلى المستشفى. رائحة السيارة من الداخل خانقة كما لو كان الشرطي يحتفظ فيها بجنّة قديمة. أراد أن يعلّق لكن دمائة خلق الشرطي منعه. لم يتبادلا الحديث في الطريق. فالرجل بلا ذاكرة، ولا يستطيع أن يدلي برأيه في مجريات الأحداث، هذا إن كان يعرف منها شيئاً أصلاً، ولا في أيّ شيء آخر، لأنه ببساطة لا يتذكّر شيئاً عن أيّ شيء. سوى. نعم سوى حلمه الصغير ذاك الذي رواه للشرطي منذ نصف ساعة، وبدلة الضابط الضيقة وطلاء الجدران في غرفة التحقيق. وهذه الرائحة المدوّخة. إن كان للرائحة ذاكرة. تتعفن الذاكرة من ذكريات سيئة. فكر. شعر الشرطي بالضيق من الوضع الذي وجد نفسه فيه مع هذا الرجل الذي لا أحد يعرف عنه شيئاً، وبالرعب من فكرة أن يفقد هو الآخر ذاكرته. لكن نمراً متوحّشا في سرّه نطق قبل النهاية بمتريين:

حتماً لو فقدت ذاكرتي فسأنتشفي بروحي وجسدي وعقلي. فلطالما هجروني! قال الشرطي.

ساد صمت طويل.

– اللعنة...

صرخ الشرطي متفادياً سيارة مسرعة أُرعبته وأخرجته من قمم وساوسه وهذيانه الداخلي. تأفّف وهو ينظر في الشوارع. أحس بأن فيها شيئاً قد تغيّر.

لوهلة نسي الرجل الجالس على يمينه. استمرّ محدّثاً نفسه: لو أنهيت دراستي لكنت الآن برتبة رائد ولمسحت الأرض بهذا النقيب المتعجرف. اللعنة عليك أيها الناظر. منّك لله. فأنت السبب.

– أيّ ناظر؟

– هل سمعتني؟

– نعم.

- غريبة... كنت أتحدّث في سرّي فقط!

- ربّما من يفقد الذاكرة يسمع الأسرار.

كنت أعرف بأنه سيكون يوماً مريراً. خناقة منذ الصباح. تريد بنت الكلب سيّارة جديدة؟ منّا لله أيها الناظر الكلب...

لم يعلّق الرجل الذي نال مؤقّتا اسم سعيد هذه المرّة.

- هل سمعت كلّ شيء دار في ذهني؟

- نعم!

- خراء...

أردف متذمرا ومتأففا:

- آسف على بذاءة لساني فأنا منذ الصباح في مزاج سيّء. الزوجة هي الحظ السيّء لأيّ رجل أو الحظ السعيد. البذاءة تأتي بعد الزواج.

استدار نحو طريق فرعي وهو يقول دون أن ينظر إلى سعيد:

- أوكدّ لك لم أكن بذيئاً قبل الزواج!

- أنت متشائم.

- أنظر من يتحدّث عن التشاؤم. هل تراهن؟

- على ماذا؟

- أنك فقدت ذاكرتك بسبب امرأة؟

زمّ شفّتيه تحسّبا:

- لا أدري....

- كم عمرك؟

- لا أدري...

نظر إليه نظرة جانبية:

– أقدّر عمرك بثمانية وثلاثين. لم تصل الأربعين. الذين يصلون إلى الأربعين لا يصابون بفقدان الذاكرة.

– هل هذي معلومة طبية؟

– هههههه. لم أكمل. أردت أن أقول بأنهم يصابون مباشرة بالجنون!

أقطع يدي لو لم يكن هذا الرجل قد فقد ذاكرته بسبب زوجته. هجس في سرّه. ثم نخر بصوت مسموع. وصلت الفكرة للرجل. لم يقل شيئاً.

دخلا بوابة المستشفى التي كانت تعجّ بالناس من كلّ الأعمار. عند حاجز الاستقبال احتار الشرطي كيف يشرح المرض لموظفة الاستقبال التي كانت تكتب ملاحظات بيد وتمسك بسماعة الهاتف باليد الأخرى، بينما توقّف الرجل المفترض أنه سعيد على مبعده ثلاثة أمتار وهو يراقب بعينين بلون الدهشة. لكن الشرطي تغلب أخيراً على ضيقه وكدره فقال:

– اسمعي أختي العزيزة، أنا من مركز شرطة اشبيلية. لديّ حالة خاصّة جدّاً. هذا الرجل يبدو أنه قد فقدَ ذاكرته وقد لجأ إلينا في المركز، لكن ليس من اختصاصنا تمييز فقدان الذاكرة. لذا قرّرنا أن نحضره إليكم، فهو من اختصاصكم.

وضعت المرأة السماعة من يدها وأنصتت بانتباه. لم يبدُ على المرأة أنها فوجئت. استغرب الشرطي. وما زاد من استغرابه أنها ابتسمت ابتسامة غريبة مصبوغة بالحيرة، وعندما رأت الاستغراب في وجهه قالت له وهي تضع يدها اليمنى على جبينها متذمّرة ووجهها إلى أسفل:

– أخي العزيز. هذا الرجل هو الحالة العاشرة منذ هذا الصباح!

– كيف؟ الحالة العاشرة! هل تمزحين؟

رفعت رأسها والحيرة:

– بالطبع لا أمزح.

نظر الشرطي إلى الخلف حيث يقف الرجل المفترض أن اسمه سعيد، ثم أخفض صوته وهو يضيف مسدداً عينيه نحو عينيها:

– ماذا يعني هذا؟

- الله وحده أعلم يا عزيزي الشرطي.

- لكننا لم نسمع بهذه الحالات من قبل، أليس كذلك؟

- لأنها منذ صباح هذا اليوم فقط. وحتى يوم غد لن تكون وحدك من يعرف بالأمر. سيكون البلد كله على اطلاع.

- وهل عاين الأطباء هذه الحالات؟ أعني هل قالوا بشأنها شيئاً؟

- لا شيء. المرض غريب. ليس له سبب معروف ضمن ما يعرف الأطباء.

- وهل هو مرض؟

- ليس بعد. لنقل حالة.

- حسناً وماذا أفعل بهذا الرجل الجالس هناك؟ هل ستتسلمونه؟

- نعم. إن شئت. دعه الآن يستريح على ذلك المقعد حتى مجيء الطبيب. إن أردت أن تبقى معه والإ...

- حسناً سأقول له، وربما سأعود إليه لاحقاً. يجب أن أعود إلى عملي.

شكر المرأة التي انشغلت على الفور بسماعة الهاتف بطريقة آلية، وتوجّه صوب الرجل الذي شنقه الوهم بحبل النتيه الذي كان يشعر به، وهو مشوّش البال يكاد يفقد رهانه حول المرأة التي كانت بملامح هادئة وجميلة، وترتدي حجاباً أبيض اللون يتماشى مع زيّها الأبيض:

- سعيد...!

قال له وهو يجهد في تلميحات أنية مقنعة بأن الأمر سيكون هيئاً. ربّما مجرد فقدان ذاكرة بسيط وعارض. تستطيع أن تقول بأنه مؤقت. ثم أمره أن يبقى هنا ريثما يأتي الطبيب. وأراد أن يقول له شيئاً غير أنه نسي. استغرب هذا النسيان المفاجئ. خيّل له بأن ما يحدث له بسبب زوجته المتسلطة: اللعنة! من كان يقصد بهذه اللعنة. حتى هو لم يعرف. كان ينظر إلى سعيد الذي أحسّ بأن الشرطي يتعرّض لنفس الأعراض التي مرّ بها في هذا الصباح. رمق كل منهما الآخر. ثم انسحب الشرطي من الموقع متوجّها نحو البوابة. لفّ لفة كاملة حول نفسه ثم سقط مغشياً عليه. هرع الممرضون والناس. لكن سعيد الذي كان يراقب الشرطي خطوة بخطوة كان أوّل الواصلين إلى جسده النحيف المتهاوي على الأرضية الرخامية. شدّه إلى أعلى. أسنده على ركبته بينما قام الممرضون بحمله ووضعوه على السرير المتحرك. أمسك سعيد بيد الشرطي المنهار وأخذه الممرض إلى غرفة طوارئ جانبية. شاهد سعيد حنفيّة الماء. ملأ يده منها ثم مسح على جبين الشرطي الذي بدأ يستعيد

وعيه. التقت عيناها عند حافة الوعي. كادا يسقطان من الحافة المسننة بالنسيان. كان الشرطي قبل دقائق هو من جلب سعيد إلى المستشفى، والآن سعيد من يحاول أن يسعف الشرطي. تبادل أدوار دراماتيكي يحصل في الحياة في كل دقيقة منها. قال الممرض: دعه يرتاح. لكن سعيد رفض تركه وحيداً في غرفة الطوارئ. مرّت أكثر من عشرين دقيقة قبل أن يقوى الشرطي على الكلام، غير أنه لم يقل شيئاً واضحاً. بدا كأنه قد دخل في حالة هذيان مطلق بوجه ليموني. سأله سعيد الذي خمن أن ما أصاب الشرطي هو ما أصابه هذا الصباح:

- كيف حالك؟

□

- الحمد لله.

قالها بصعوبة بالغة كما لو كان قد نجا من جلطة مخيفة.

- هل تعرفني؟

نظر الشرطي في وجه سعيد متفحّصاً لكنه شعر بألم شديد في رأسه مثلما لو أن مجرماً قد ضربه بعقب مسدس على مؤخرة رأسه. لم يتعرّف على وجه سعيد مستغرباً وجوده في مكان لا يعرفه. مرّ وقت طويل نسيّاً قبل أن يرد على سؤال الرجل الجالس أمامه على الكرسي قرب السرير:

- لماذا أنا هنا؟ ومن أنت؟

أحسن سعيد بصدق تخميناته، فالشرطي هو الآخر فقد الذاكرة. قال له:

- أنت مبارك. ألا تذكر اسمك؟ لنا إحساس الاسم نفسه. أنا سعيد وأنت مبارك!

لكنه أحسنّ في قرارة روحه بأن أفضل شيء يمكن أن يحدث لشرطي وسط عويل الحياة المتوحّش هذا هو أن يفقد ذاكرته!

## الفصل الثاني

تبادل هويّات في يوم سيّء

في صباح اليوم التالي كانت الصحافة المحليّة تتحدّث عن كارثة وطنية حقيقية. وكتبت بمانشيتاتها على صدر صفحاتها الأولى:

حالات فقدان ذاكرة مجهولة الأسباب.

الحكومة تتكتم على الأسباب الحقيقية.

وزير الصحّة: بضع حالات بسيطة لا تعني وجود وباء.

وزير الداخلية: هناك من يستغل الموقف ويصطاد في الماء العكر لكننا له بالمرصاد!

لكن صحيفة من هذه الصحف على الأقلّ ناقضت ما يقوله وزير الصحّة الذي اتهمته بحجب المعلومات عن الرأي العام، وذكرت بأنها زارت أحد المستشفيات وأحصت ما لا يقل عن مائة حالة. وزير الداخلية هدّد أصحاب المواقع الإخبارية بالسجن في حال تماديهم ببثّ الإشاعات في الوطن.

شعر سعيد بأنه حالة ضمن وباء ينتشر في الوطن بعد أن شاهد العشرات يدخلون المستشفى. ولم يدر لماذا شعر حقاً بأنه مميّز. ربّما لأنّه من أوائل الحالات التي أصيبت بهذا الوباء في البلاد منذ صباح أمس. وربّما لأنّ الشرطي أطلق عليه اسم سعيد، وهو في أول يوم فقدان ذاكرة، وبذلك فقد أصبح له اسم على الأقلّ يمكن أن يقدم نفسه به للناس. كان في تلك اللحظة أقلّ شروداً وأكثر تفاعلاً.

ظلّ يراقب نشرات الأخبار المتتابعة من جهاز التلفزيون في الممر. ينهض من كرسيه مقترباً من الجهاز لرؤية الشريط كأنه من ذلك القرب يستطيع السيطرة أكثر على هذه الأخبار. يعود إلى مكانه ثم ينهض ثانية. قال في سرّه: لو كان لديّ هاتف لما احتجت إلى هذا التلفزيون اللعين. لم يعد يتذكّر أين وضع جهازه الجوال. هل يعقل أنني لم أكن أملك هاتفاً؟ تساءل وهو يرى الناس في الردهات مشغولين بشاشات هواتفهم أكثر من شاشة التلفزيون. وجد لنفسه تفسيراً معقولاً. ربما سقط على الأرض مثلما سقط الشرطي مبارك في لحظة فقدانه للذاكرة، فاستولى عليه أحد المارة. لم يأخذ فقط الهاتف بل أيضاً كل ما في جيوبه. وهذا ما يفسر بأنه بلا بطاقة هوية، وخلو جيوبه من كل شيء.

عنّت عليه السجارة. أين يمكن أن يجدها الآن. أحسّ بالإنهاك في جسده مثل قطعة لحم متعفّنة. أحسّ أيضاً بالجوع. ولم ينس أنه قال للشرطي مبارك يوم أمس بأنه لم يكن متأكّداً من أنه يدخل أم لا؟ عثر على عذر لنفسه: كنت في قمة الغفلة والنشّت. حسناً وماذا بعد؟

لم تعرف إدارة المستشفى ما الذي يمكن أن تفعله لأصحاب هذه الحالات: فقدان الذاكرة أو انهيار الذاكرة كما سمع الممرضة دوللي تتطرق به. عرّفت باسمها له لكي يناديها إن تذكر شيئاً لكنها سرعان ما نسيت في غمرة انهماك المرضي كجنود حرب يصلون تباعاً من جبهات القتال المستعرة. حالة واحدة مصيبة، ولكن وجود حالات كثيرة جعلت الأمر يبدو كأنه موجود منذ الأزل. مجرد إحصائية مخيفة. الإنسان يتأقلم مع المصائب.

نظر إليها من ذلك البعد. ودّ لو اقترب منها أكثر. انتبه لأول مرة بأنها جميلة. عيناها تشعان بشيء ما لم يعرف كنهه. لفت نظره كحل عينيها الذي منحها اتساعاً وعمقاً يبذر لون بياضهما. الكحل يصعب النظر إلى العينين. رده الجوع للذهاب إليها وطرح الأسئلة. كان يشعر بجسده منهكاً تماماً. حتى أن أنفاسه مقطوعة.

اجتمع مدير المستشفى بمساعديه صباحاً وتمّت مناقشة الأمر من كلّ الجوانب. قال الدكتور سعد ناصر:

– لا أريد أن أكرّر ما تعرفونه ونعرفه جميعاً. أريد فقط أن أستمع لآرائكم حول تصرفنا الطبي والقانوني حيال ما يحدث في البلد؟

رفع نظارته الطبية عن عينيه محدّقاً في اللاجدوى. لم يكن منظره يوحي بأنه طبيب ناهيك عن أن يكون مديراً لمستشفى.

قال المستشار الدكتور نبيل جودة وقد ارتمت خصلات من شعره الأشيب على يمين جبينه مانحةً إياه وجه مخترع حاصل على جائزة نوبل:

– لو سمحت لي يا دكتور أن أوضح أمراً. حتى لو استوعبنا بعض الحالات فإننا بالتأكيد لا نستطيع استيعاب الجميع. المستشفى غير مهياً لكي يكون فندقاً!

ردّ الدكتور ميشيل نعيمة:

– لو سمحت لي يا دكتور. هذا وباء. والوباء يجب أن تتدخلّ الدولة لمساعدتنا عليه وتهيئ أماكن كبيرة له.

قال الدكتور سالم:

– مدارس مثلاً... أو كامبات!

– فنندق! قال طبيب آخر يجلس في طرف الطاولة اسمه عاطف وجدي.

رد ميشيل:

- أو نطلق سراح هؤلاء الناس ببساطة لكي يذهبوا إلى بيوتهم!

أطلق مدير المستشفى تهيدة وهو يقول:

ولكن بعض الحالات لا تعرف حتى أين تسكن!

- على الأقلّ من يعرف منهم نرخصه لكي يذهب إلى بيته أو يأتي من يتسلّمه من أهله. البعض منهم وصل إلى المستشفى برفقة أهله. قال ميشيل.

- لماذا لا نطلب من الجيش عمل معسكر كبير في الصحراء؟ قال مدير المستشفى. وأضاف: على الأقلّ للوافدين. تذكر فنظر إلى أثر كلمة الوافدين على بعض الأطباء. أعني تعرفون تجار الإقامات جلبوا مليونين من البشر بلا عمل. ماذا لو أصيبوا جميعهم بهذا الوباء. لا أهل لهم هنا.

- لم يصبح هذا المرض وبياء بعد. ربما يمكن السيطرة عليه. قال الدكتور محمد جمعة.

- ولكن بعض دول العالم أعلنت بأن لديها بعض الحالات. قال مدير المستشفى.

انتهى الاجتماع الذي دام حوالي ساعتين على أن يتمّ صرف من يعرف بيته أو لديه عنوان ورقم هاتف يمكن الاتصال من خلاله على ذويه لكي يحضروا لاستلامه من المستشفى. من شأن ذلك تخفيف الضغط على المستشفى. كما تم تشكيل لجنة من الأطباء لمحاولة معرفة السبب العلمي لهذا المرض. وكيف ينتقل إلى الأشخاص.

وقف سعيد في الممر. لم يكن يشكو من أيّ عارض صحّي في جسده. هو في كامل لياقته البدنية، شاعراً بأن استمرار وجوده في المستشفى ما هو إلا عبث لا طائل من ورائه. كل ما يشعر به الآن الجوع فهو لم يأكل منذ يومين. ويكاد يسقط مثل جثة أطلقوا عليها النار. تذكر صديقه الشرطيّ الذي منحه اسمه الحاليّ المؤقت: سعيد.

توجّه إليه وهو في الغرفة العموميّة حيث يوجد خليط من المرضى. هسّ في وجهه:

- ها يا بطل... صباح الخير.

- صباح النور.

ردّ الشرطي الذي كان ما يزال في ملابسه. في محجريه برزت تغصّانات قبل الأوان.

- ما رأيك لو هربنا من هنا؟ قال سعيد.

- لا داعي لذلك فقد أخبرتنا الممرضة للتوّ بأن من يعرف عنوانه يمكن أن يخرج أو يتصل بأهله لاستلامه. قال الشرطي.

قهقهه سعيد من الكلمة الأخير: لاستلامه! ثم أضاف:

- هل أصبحنا بضاعة وصلت إلى الجمارك وجاهزة لاستلامها من قبل صاحبها؟  
- أصبحنا...

قال الشرطي ساخراً.

- طيب أريد منك سيجارة.

قال سعيد. مضيفاً:

- قلت لك بالأمس بأنني لا أدخن. لكن لا أدري... لقد اتّضح لي بأنني مدخن!  
- أمممم. حقاً.

هزّ الشرطي رأسه بمكر وهو يردّد: لا أتذكّر شيئاً عن حكاية التدخين هذه.

- في الحقيقة أنا لا أدري إن كنت مدخناً أم لا؟ ولكنني الآن بحاجة إلى هذا القرف. كما أنني أكاد أموت من الجوع. هذا المستشفى لا يعطيك حتى كسرة خبز. يجب أن نخرج قبل أن ندخل في غيبوبة.

- حسناً إذن فلنخرج من هذا القرف. سنجد ما نأكله.

عند استقبال الجناح قال الشرطي للممرضة:

- أنا سأخرج ومعني الأخ سعيد.

- طبقاً لأمر المدير يمكنك ذلك في حالة لديك بطاقة شخصية أو أنّ أحداً من ذويك أتى لاستلامك...

- لاستلامه؟ ماذا تعنين باستلامه؟ لاستلام الشرطي!

ردّد سعيد. ثم أطلق ضحكة قوية بلهاء لدرجة أن الشرطي مبارك استغرب أن يصدر عن سعيد كل هذا الضحك الهستيري.

– أول مرة أرى شرطياً يتسلمه أحد!

قال الشرطي وهو يلتفت نحو سعيد:

– ها هي هويّتي. أنا رجل أمن. ألا ترين أنني لا زلت في لباسي الرسميّ؟

ارتبكت الممرضة:

– نعم... نعم إنني أرى ذلك بوضوح.

نظرت إلى سعيد. فهم الشرطي:

– هذا سجينني. لا عليك. لدينا كلّ شيء عنه. سيعود معي إلى الزنزانة.

خبط برجله على الأرض لكي يتأكد من قوّة حذائه الرسميّ وهو يقدم لها الهويةّ الوطنيّة التي لطالما ألهمته شعوراً فوقيّاً لم يعد الآن يتذكّره تماماً.

– حسناً. ربي يحفظكما. تعرفون هناك فوضى في كلّ مكان. يجب أن تأخذا حذركما. الفوضى قاتلة.

قالت الممرضة بابتسامة رضا خالقة ممزوجة بحيرة ملفّقة. هزّ الاثنان رأسيهما تفهماً. غشّ الشرطي حركة سعيد...

خرجا إلى البوّابة الرئيسيّة دون أن يتبادلا أيّ كلمة. سطعت الشمس على وجه الشرطي كأن أشعّتها تأنيبٌ له. هل كان أحقّ بها من هؤلاء المارّة العابسين. شعر بأن أحاسيسه محنّكة. قديمة. معتقّة. وخزه هذا الشعور. هل بدأ يستعيد وعيه المهجور منذ البارحة؟ لَكَمّ الهواء بيمينه...

– أها... أخيراً... ما أجمل الحرية!

ملتفتنا إلى سعيد:

– ما رأيك؟

– أنت من يتحدّث عن الحرّيّة وقد قضيت عمرك في حرمان الناس من الحرّيّة!

– أنا؟

– ألسنت من يدخلهم إلى الزنازين؟ كما تريد أن تدخلني إلى الزنزانة الآن.

- هل جننت؟ أنا فقط أردت تخليصك منهم. ثم أنني لا أتذكر أي شيء عن عملي. ولا حتى أين يكون؟ لا أذكر من ماضي الشرطي أي شيء. ولولا هذه البدلة التي أقنعتني بأنني شرطي، وكذلك هذه الهوية، لما صدقت.

- هل تتذكر أين تسكن؟

- حتى الآن... لا.

- ألم يأتك اتصال هاتفي؟

- جاءتني عشرات المكالمات. يبدو أنني قد تغيّبت بالفعل عن البيت. لقد كنت نائماً بفعل حقنة المنوم. شعرت بأنني نمت ثلاثة أعوام. اللعنة يا رجل. إنها مقبلة. كأنني بسبع أرواح لكنها كلها نامت في وقت واحد. وعندما أفقت لم أستطع أن أجيب. ماذا عساني أن أقول؟ فأنا لا أتذكر شيئاً. حتماً لا أتذكر حتى إن كنت متزوجاً أم لا؟ هل لدي أطفال أم لا؟

- أما أنا فلا هاتف لدي. ولا طرف خيط.

أضف سعيد بخبث:

- لكنني متأكد من أنك متزوج. حدتني أمس عن زوجتك التي أرادت منك أن تشتري لها سيارة جديدة.

لم يبد مبارك بأنه قد سمع ما قال سعيد للتو. سرح طويلاً محاولاً أن يعي ما يحدث له. استدار حول نفسه مثل رئيس يتفقد دولته، كأنه سيعثر على علامة مميزة خلف ظهره:

- ألا تتذكر رهانك لي عن المرأة؟

- أي رهان؟ وأي امرأة؟

ضحك سعيد.

- أنت لا تتذكر. انس الأمر. سأحكي لك لاحقاً. نسيان يبحث عن نسيان.

حسناً وما العمل الآن؟ قال مبارك.

لم يجبه سعيد فقد كانت هناك جلبة كبيرة أمام البوابة وسيارات إسعاف تجلب العديد من المصابين بانهيال الذاكرة. لفحه هواء مشبع بالجنون. حمد الله أنه وباء فقدان ذاكرة وليس جنوناً:

- قلت لي ما اسمك؟

- حسب الهوية اسمي مبارك العاطف.

- مبارك...

استلّ سيجارته من علبة سجائره المارلبورو ومدّ يده بها إلى سعيد، ثم سحب أخرى لنفسه. أشعل السيجارة لسعيد ثم مرّر الشعلة على سيجارته. سحب نفساً دخانياً عميقاً ثم زفره في وجه الشمس البريئة من كل ذلك. شعر بتيار هواء لطيف يداعب وجهه.

- حسناً. ولكنك قلت لي أمس بأن اسمك سعيد؟

- أنا؟ لا أتذكر شيئاً. كيف قلت لك بأن اسمي سعيد وأنا اسمي مبارك.

قهقه سعيد وهو ينفث دخان سيجارته: أمّ هذه قصة لا تُصدّق!

هجس سعيد في سرّه. ماذا يحدث؟

قال الشرطي مبارك:

- والآن لنجد سيارتنا. نريد أن نأكل شيئاً.

ومضى دون أن ينتظر استجابة فورية من سعيد لكنه سرعان ما التفت وراءه:

- هل كان لديّ سيارة؟

- نعم. تأكّد من المفتاح.

- أه... هذا هو؟ أنت تتذكّر ها لا شك.

- لا أظن، لست متأكّداً.

تعرفاً في النهاية على السيارة من المفتاح. ولولت بصوت مزعج بصرخة استغاثة كأنها تتاديهم من بعيد فتعرّفاً عليها. وانطلقا بقيادة الشرطي مبارك وبتوجيهات من سعيد.

بعد بحث طويل وسؤال العديد من المارة وصلاً إلى مركز شرطة اشبيلية. لمح سلسلة مطاعم في الشارع نفسه: ها هي أخيراً. أصدرت أمعاؤه قرقرة كأنها رأت المطاعم. أوقف الشرطي السيارة

بالقرب من المبنى ونزلاً منها. فوجئاً بالزحمة حول المدخل الذي تحوّل إلى ما يشبه مكاناً لتشييع جنازة رجل مشهور.

دخلا بصعوبة بالغة لكنهما فوجئاً بمأساة. كان هناك ضابط بملابسه الرسمية ونجومه الثلاث يتقيّان. ولكنه ليس الضابط فهد الفولاذي. وامرأة تجلس القرفصاء على الدرج. هرج ومرج حقيقي. كأنه يوم القيامة.

– هل أنت متأكد بأنني أعمل هنا؟ قال الشرطي.

– نعم كنّا هنا أمس فقط. قال سعيد.

لم يتعرّف على أحد ولا أحد تعرّف عليه. سأل سعيد رجلاً بديناً فوق رأسه بضع شعيرات مهملة:

– ما الأمر؟ ماذا يحدث؟

– لا أدري.

– كيف لا تدري؟

ردّ الرجل الخمسينيّ البدين.

– لا أدري؟

احتاجاً لنصف ساعة أخرى لكي يصابا باليأس التام. لقد انفضّ عقد مركز الشرطة منذ الصباح الباكر. أصيب الجميع بانهيار الذاكرة. ولم يعد أحد يتذكّر شيئاً. لذا استطاع بعض الناس تخليص المحتجزين من الزنازين. أما الذين جاؤوا هذا الصباح إلى المركز أو نقلوا إليه فهم يطنّون كالذباب حول المكان لا أحد يدري ماذا يفعل لهم أو بهم؟ هجم بعض المساجين على أدرج الأحوال في منضدة الاستقبال ناهبين البطاقات الشخصية والهويّات. بعضهم عثر على هويّته لكن الغالبية لم تعثر على شيء. ببساطة لأنه قد تمت سرقة هويّاتهم من بعض المارة. تبادل الناس الهويّات. كل واحد نال هويّة عشوائية تماماً كهوية الحياة دون أن يعرف ماذا سيفعل بها. وخرج إلى المدينة المنكوبة منذ يومين بهذا الوباء. الناس يقلّدون بعضهم البعض في الأفعال حتى لو كانت غير مفهومة أو عبثية.

شاهدا رجلاً أصلع ببنية قوية يهجم على شرطي ويطرّحه أرضاً، ثم ينتزع من جيبه بطاقة الهوية. وبعد ذلك يلكم الشرطي لكمة وداع ويتوارى بعدها في الشارع الرئيسي وسط الزحام. لم يستطع سعيد أن يفعل شيئاً للشرطي. فكّر بأن الشرطي حتى أمس كانت هيبته وقوته مستمدة من لباسه الرسمي الذي يشبه قوانين الطبيعة وليس من قوّة جسده.

خطر لسعيد لو هلة أن يحصل على هوية عشوائية بسبب التيار الجارف للفكرة التي سيطرت على هؤلاء الناس، كما فعل هذا الأصلع الذي سرق هوية شرطي جهازا نهارا. لكنه صرف النظر عن ذلك. لم تتبق أصلا ولا هوية في مركز الشرطة. ولأنه لا يستطيع أن ينتزع هوية أحد بالقوة فقد اكتفى بدور المتفرج في حفلة الهويات هذه. ماذا عساني أن أفعل بهوية تحمل صورة شخص آخر؟! قال في سرّه وهو يتعجب من خلط الهويات.

شعر سعيد بالتميز لأنه كان يمتلك هوية في جيبه، وبصفاء ذهنيّ عجيب على الرغم من مأساوية الوضع المتدهور بسرعة البرق. تذكر أن الطبيب قد قال له أمس بأن فاقد الذاكرة ينتابه شعور مشابه للسكينة الوجودية. صفاء علوي أليم. حلل كلمة الوجودية والطبيب ينطقها بحروف ممدودة مُسكرة. وجدها كلمة كبيرة جدًا على استيعابه. كان اسم الطبيب المدون بباج على صدره: خلف العنزي. ولكنه هذا الصباح، والآن بالذات، شعر بأنه قد بدأ باستيعابها مثل بوابة مدينة مشرعة عن آخرها على السماء العليا. حيث لا ذكريات من الماضي أو أحداث في ذاكرته يمكن أن تعكّر مزاجه. إلا لون الغرفة التي اشمأز منها صباح أمس وهو في المخفر. إنها سلطنة بدون ذاكرة. سُكر بلا خمر. ذهول بلا كارثة. ترنح مثل أيّ ثمل في زقاق مظلم دون سقوط. فالذكريات جنود مجنّدة. وهو من سلاح المشاة. في مدينة لا يعرفها. أو لا تعترف به. قد يخوض فيها حرب شوارع. لكنه لا يعرفها. لا يعرف ملامحها. ولا تعرفه. من أين أتى؟ تساءل مثل عصفور سقط من شجرة: لماذا لا تتاديه هذه المدينة إن لم تكن قد فقدت ذاكرتها هي الأخرى؟ إن كانت حقًا تعرفه؟

رجع الشرطي مبارك إلى حيث يقف سعيد قرب البوابة الخارجية وهو ينظر إليه من بعيد، وقد انتبه للمرة الأولى إلى مشية الشرطي التي تشبه ترنيمه في فضاء غير معالج، وهو يمايل رأسه عند مشيه كما لو كان يغني في سريره:

لا شيء يمكن أن يفيدنا. لم أعر على شيء. ولا أيّ ذكرى من هذا المكان. هل أنت متأكد بأنني أعمل هنا؟

هذا هو الشيء الوحيد الذي أتذكره حتى الآن على الأقل، وبدلتك تدلّ على ذلك بوضوح.

– والآن ماذا؟ سأل مبارك.

– لا أعرف. أنت الحكومة!

– أضاف سعيد ضاحكا:

– الحكومة انتزعوا منها هويتها! يا إلهي!

– ماذا تعني؟

سقطت الشمس فوق رأس مبارك الذي دار حول نفسه شاعراً بأنه يلقف أشعة الشمس قبل أن تهوي على الأرض.

– بماذا تفكر؟

قال له سعيد.

– أين سنذهب الآن؟ أشعر بالضيق. حتى المطاعم في هذا الشارع نهبوها. إنني أتضور جوعاً.

– ألا تعرف عنوان بيتك؟

– لا!

– فتش نفسك؟ ربّما عثرت على عنوان. طرف خيط. هل ذاكرتك فارغة تماماً؟

– نعم فارغة! لم أجد شيئاً. لا أحد يكتب عنوان منزله على ورقة ويضعها في جيبه!

حكّ مبارك جمجمته الفارغة بحسرة وقد لمعت فوقها بعض شعيرات بيضاء لا تعبر عن عمره الحقيقي بكل تأكيد:

– هناك أمل واحد فقط.

– ما هو؟ قال سعيد.

– اتصال هاتفي من مجهول.

– عندي فكرة. قال سعيد وكان هذه الفكرة قد هطلت على ذهنه للتو كالمطر.

ما هي؟

– بادر أنت. اتصل بأحد هذه الأرقام في هاتفك. لماذا تنتظر اتصالاً قد لا يأتي.

راقت الفكرة للشرطي مبارك. فاتصل بكل الأرقام الظاهرة على شاشة جواله. لا أحد يرد. أصيب باليأس. ارتعشت يده. من الجوع ومن التوتر المشوب باليأس. بقي رقم واحد فقط. أداره. أخيراً ردت امرأة مسجلة باسم سعاد:

– أهلاً...

- أنا مبارك .

- من مبارك؟

- ألا تعرفيني؟

- يا ليتني كنت أعرف من أكون أوّلا .

- هل أنت سعاد؟

- سعاد؟

- نعم اسمك مدوّن عندي في الجهاز: سعاد!

- أنا؟

- نعم. اسمعي لا بدّ أن تكوني من عائلتي أو حتى من أقربائي. لقد اتصلتِ بي أمس بلا انقطاع.

- أنا؟

- نعم.

- والآن هل لك أن تعطيني عنوانكم؟

- هل تمزح؟

- لماذا؟

- أقول لك لا أذكر حتى اسمي تقول لي أعطني عنوانكم؟ أرجوك أنا منهكة جدّا ولديّ صداع رهيب.

- هل هناك غيرك في البيت؟

- الأطفال ذهبوا مع من قال بأنه أبي. قال لي بأنه سيصحبهم إلى جدّتهم ويعود...

شعر كمن أمسك بطرف خيط ذهبي وسط تشجيع سعيد. فسألها متى يعود والدها، راجياً منها أن تتصل به فور وصوله ربما تعرّف عليه...

وعدته. أنهى المكالمة بوجه متجهم.

بقي مستغرقاً في التفكير لكن سعيد أعاده إلى الواقع:

– والآن ماذا؟

– لا أدري...

فجأة جاءت سيارة مسرعة كالقدر يقودها مجنون وتقادياها بصعوبة:

– اللعنة! كاد أن يقتلنا هذا المجنون.

صرخ مبارك.

ضحك سعيد.

– الوضع الطبيعي الآن أن كل من في الشارع مجانيين. يجب عليك الآن أن تغيّر لباسك الرسمي. ستكون عرضة للهجوم في أي وقت لكل الخارجين على القانون!

دوت طلقات لأعيرة نارية بالقرب منهما. وشاهدا مجموعة من الرجال وهي تنهب بعض المحلات.

– بلا ذاكرة سيخرج الجميع على القانون! معك حق.

قال مبارك وهو يهزّ رأسه اقتناعاً.

– اسمع فلنذهب إلى الجِد هذه المحلات قبل أن يتم نهبها عن آخرها. يجب أن تغيّر لباسك. إنه خطر عليك الآن. سبحان الله حتى أمس كان لباسك هذا مهيباً ومخيفاً، ويؤمن لك الحماية. واليوم بسبب الذاكرة أصبح خطراً عليك. لقد رأيت أحدهم يطرح شرطياً ويستولي على هويته. كاد أن يقتله! قال سعيد وهو يشير إلى لباس الرسمي بطرف سبابته.

ركضا باتجاه محلّ لبيع الملابس لم يكن قد وصله الجمهور الغاضب الذي فقد ذاكرته أو «تفادها». لا أحد سعيد بفقدان الذاكرة في هذا العالم مثل اللص. كيف يعرف اللص بأنه لص. تساءل سعيد في سرّه. كان البائع في الداخل مرتجفاً من الخوف وهو يراهما وقد اقتحما عليه المكان:

– هل فقدت ذاكرتك أنت أيضاً؟

سألاه.

– حتى الآن لا.

- حسناً أقفل الباب، ماذا تنتظر؟

أقفل البائع الباب بسرعة وهو يرتعد خوفاً.

هل لديك ملابس قياس هذا الرجل؟

أحضر شريط التمتير ولّفه حول خصر مبارك وهو يتمتم: 38 في 40. ثم ركض باتجاه البنطلونات الجينز مخرجاً واحداً بطعم السماء الزرقاء:

- خذ... هذا قياسك.

ذهب مبارك إلى غرفة تبديل الملابس. وخرج بعد دقيقة بالجينز والفانيلة البيضاء كأنه أحد أعضاء فرقة موسيقية.

- والآن:

قميص أو تي شيرت لو سمحت.

أعطاه تي شيرت اكس لارج. ارتاح البائع وصدّق بأنهما لا ينويان به شرّاً. قال وهو ينقل نظره بينهما:

- ربما تحتاج أيضاً لجاكيت فالجو ليلاً سيكون بارداً.

أخرج مبارك ورقة من فئة العشرين ديناراً وأعطاهما للرجل:

- هذا كلّ ما لديّ!

- لا بأس، احتفظ بها، من يدري فربّما ستحتاجانها. إنها هديّة مني!

قالها وهو يحمد الله في سريره أنهما لم يفتكا به مثلما ظنّ في بداية اقتحامهما لمحلّه. فلا أقلّ من هديّة كأنها شكر لهما على إنسانيتهما معه. اقتربت الآن الأصوات أكثر من المحلّ تدمدم مثل زمجرة هليكوپتر. وما لبث الجمع أن كسر الواجهة الزجاجيّة لمحلّ الملابس الكبير. عصف القلق بصاحب المحلّ منتظراً منهما التصرف ولو بكلمة وها هي قد جاءت أخيراً على شكل سؤال:

- هل لديك باب خلفي؟

- نعم اتبعاني.

خرجوا جميعاً من الباب الخلفي للمحلّ وهم يركضون باتجاه الساحة الرئيسيّة للميدان حيث وقفوا لالتقاط أنفاسهم التي نهبتها الصدمة. شعر سعيد بأنه يوم سيء للغاية على الرغم من جمال السماء، والنسيم المنعش الذي كان يهبّ عليهم من كهف غامض لا مرئي. وأن يوم أمس كان أفضل بكثير إذ لم يصب بهذا الوباء سواه ومائة شخص.

– أنت الوحيد الآن الذي لا زلت تحتفظ بذاكرتك. أنت محظوظ. لا شك. وستساعدنا على التعرّف على خريطة المكان. والآن قل لنا ما اسمك؟

سأله مبارك وهو لا يزال يلهث كأنه أفلت للتوّ من فرقة إعدام في جيش زاحف.

انطلق وابل من الرصاص من جهة أخرى. لماذا يطلق الناس الرصاص عندما يفقدون ذاكرتهم؟ قال سعيد. صراخ المرأة في هذه الفوضى لطلب النجدة، أما صراخ الرجل فلطلب الموت. جفل الجميع. تلوّث الجوّ بصراخ مرعب لامرأة وأطفالها. علق صراخهم على حبل غسيل في الجو. وكان هناك رجل يتقيّأ وحيداً على ناصية الشارع. يتجشأ ثم يتقيّأ. مرّ كلب مسرعاً وهو يعبر الشارع محنيا ذيله للأسفل دليل الخوف والاستسلام متلفتنا في كل اتجاه، قبل أن تمر السيارات المعتوهة:

– كم هو محظوظ أيضاً هذا الكلب؟

قال مبارك وقد استقرّه مرأى الحيوانات والناس وقد اختلطوا بعضهم ببعض.

– على الأقلّ يعرف هذا الكلب أين سيذهب!

– الحيوانات لا تمرض. مرضها الوحيد الذي يقتلها هو الإنسان.

افتترت ابتسامة من ثغر البائع وشعّ من عينيه بريق اللحظة الأخيرة.

– ما اسمك؟

كرّر عليه مبارك.

ضرب جبهته بيده:

– اللعنة!

– ماذا؟

– لقد نسيت اسمي؟

– يا للذاكرة الحمقاء! قال مبارك وهو يلهث. وضع يديه على ركبتيه وركع ملتقطاً أنفاساً مقطوعة من شجرة أوكسجين.

يا ويلنا! هل هذا المرض معدٍ؟ تساءل سعيد بحيرة زافراً كل أنفاسه، زاماً شفتيه مثل فوهة.

## الفصل الثالث

### ثلاثة رفاق

أصبحوا ثلاثة رفاق الآن في مدينة هامدة تعجّ بالسائبين.

شعروا بالجوع يفتك بهم. بدأت الشمس تميل إلى حتفها اليوميّ: الغروب. وبدأ الجوُّ معها يجنح إلى البرد والسلم والموت. انقضى النهار بالسلب والنهب والفوضى كأن الحياة قد انفرطت من مسبحة في يد شرير. الليل ستر وغطاء. لم يعرفوا بالضبط ما الذي يدور بحق الجحيم في هذا العالم. سمعوا جميع أنواع الضجيج والأصوات. طلقات نارية. صرخات استغاثة. أصوات هشيم زجاج النوافذ. نباح. موسيقى صادحة. غربية وأخرى عربية. بكاء. عويل. عواء. صوت نجمة تمخر عباب السماء راحلة إلى عالم آخر. حتى أنهم سمعوا صوت محرّكات سفينة عملاقة. هل أتب العالم نفسه فجأة؟ تساءل مبارك في سريره.

خُيل لسعيد بأنه يسمع صوت المطر. لكن لم تكن تمطر إلا في خياله الرخيم.

دخلوا إلى أحد الأسواق. المحلات منهوبة كأن البرابرة قد دخلوا المدينة في هذا الصباح. كان هناك رجل جالس على مصطبة بارزة من محلّ منهوب وبوابته مكسّرة يلف التبغ كأنه قادم من القرن الفائت. شاربه ملفوف إلى الأعلى يوحي بأنه كان من طبقة نبيلة مجرمة. هذه موضة منقرضة، فكّر سعيد. بلا مبالاة بوجودهم أشعل الرجل، بشاربه النبيل المعكوف إلى الأعلى مثل حربة، سيجارته التي حرص أن تكون في وضع جيّد بين أصابعه كي لا تحرق النار طرف شاربه المعتنى به بحرص باشا:

– السلام عليك يا شيخ. قال مبارك.

بصق على الأرض قبل أن يلتفت إليهم بعينين ملتهبتين من مرض مزمن:

– وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. رافعاً عينيه.

– نحن منذ الصباح لم نأكل شيئاً، هل هنا لا يزال مطعم؟ قال سعيد.

نظر الرجل إليهم شزراً متفقداً أحجامهم ولباسهم:

– هل جننتم؟

– وهل جنّ من يسأل عن طعام؟ ردّ مبارك.

مسح الرجل شفثيه بطرف كّمه مستهزئاً:

– سألتم عن مطعم وليس عن طعام؟

– حسناً لا فرق... هل يوجد؟

وقبل أن يكمل سعيد جملته أشار الرجل إلى سوبرماركت صغير عند الزاوية:

– اذهبوا إلى هناك... ستجدون بعض الطعام.

نفخ دخان سيجارته دوائر كبيرة في الهواء كأنه يعلن عن وجوده العبثي وسط هذه الفوضى. حانت منه التفاتة أخيرة رآهم فيها فخمّن: هذا الرجل شرطي! دققّ البائع في ملامحه. يبدو كأنه ضابط متقاعد. نظرتة حازمة. قال البائع في سرّه. يداه قويتان صلبتان يخشاهما البعوض. يعرف هذه السمرة في يد رجل ميّت تقريباً. لم يتذكّر أين يمكن أن يكون قد رآها من قبل.

جرجروا أرجلهم المشوبة بالتعب والحذر، متوجّهين إلى السوبرماركت الذي أشار إليه الرجل السبعيني المنصرم مثل مائة عام خلت. في الداخل كان المشهد رائعاً بالنسبة لهم. قليل من الناس تأخذ ما تريد دون إحداث الكثير من الجلبة. بينما الأبواب مشرعة ولا يوجد باعة قرب أجهزة الكاشير. تهذيب خلب لبّهم وأيضاً جعلهم أقرب إلى المجانين الصامتين. حتى أنه لم يتكلم منهم أحد مع صاحبه. دبّ نشاط مباحث في أجسادهم. أخذ كل منهم كيساً كبيراً وهم غير مصدّقين وملأوها بالمعلّبات وزجاجات المياه المعدنية وخبز الباغيت ومجموعة متنوّعة من الأجبان، ولم ينس مبارك وسعيد علب السجائر ثم خرجوا وسط دهشتهم. قال مبارك وهو يلهث ملتفتاً حوله مثل مظليّ هبط للتوّ ببراشوته على مدينة غريبة خلف خطوط العدو:

□

ماذا يحدث بالله عليكم؟ هل نحن جزء من مشهد سورياتي؟ هل نحن حقيقيون أم مجرد أوهام لمخرج لا نراه؟

هناك في الناحية الأخرى من المدينة نهب وسلب وهنا الناس يأخذون ما يحتاجون إليه فقط ويخرجون بكل هدوء ونظام! قال البائع.

أعتقد بأن الناس الذين يسلبون وينهبون في الجانب الآخر لا يزالون بخير. قال مبارك وهو يكاد يتعثّر من فرط الحلم.

أطلق البائع ضحكة وهو يتهشّم على الطريق:

– تقول بخير؟

ضحك مبارك من نفسه ضحكة يأس وشعر بأنه سيقول كلاماً ملهماً:

أعني أنهم لم يصابوا بعد بفقدان الذاكرة! الذاكرة مجرّمة. من يُصب بفقدان الذاكرة لا يسرق. وضح مبارك قصده وهو ما يزال يتلقت مراقباً الطريق.

– لا وقت لمثل هذا الهراء. يجب أن نأكل قبل أن نموت. قال سعيد وهو يبحث عن دكّة لمتجر منهوب. شعر بدوار مفاجئ من فرط الجوع والنسيان.

تصرّفوا سريعاً قبل أن يموتوا جوعاً بفتح بعض المعلّبات على دكّة قريبة منهم. وقال سعيد مذكراً:

– يجب علينا الاقتصاد.

ثم ملتفتاً للبائع:

– حقّاً. لقد نسينا أن نسألك عن اسمك في المحلّ؟

– ألم أخبركما باسمي قبل أن نهرب.

– لا.

ضرب بيمينه على راحة كفّه الأيسر الذي تورّد على الفور:

– إذن نسيته!

أطلق مبارك ضحكة مجلجلة دوّت في الفراغ المقعي على الأرض مثل مثل كلب.

والآن لا بدّ من أن نطلق عليك اسماً مؤقتاً. اقترح أنت يا سعيد.

– أنا؟ هل نسييت بأنك من أسميتني؟ وأنت الوحيد بيننا من يملك اسماً حقيقياً. ثم أنك شرطي. هل نسييت أيضاً؟

– اللعنة! هل يجب عليّ أن آخذ معي هذه الصفة إلى العالم المجنون هذا حتى وأنا فاقد للذاكرة؟ ما الذي يميّزني عنكما؟ قل لي؟

– الآن لا شيء. قبل يوم واحد كل شيء كان يميّزك عنا. ربما كنت تحسب نفسك الدولة. قال سعيد وهو يفتح علبة شيبس ويأكل منها مستمتعا بطعمها: إنها بالفلفل الأسود وملح البحر. يهياً لي بأنني كنت أعشق البحر في حياتي السابقة.

– أه. صحيح هناك شيء اسمه البحر. نسييت. قال مبارك.

وتابع بينما شرع سعيد يشرب من زجاجة عصير البرتقال:

- حسناً اسمع... سمعت إحدى الممرضات هذا الصباح تنادي طبيباً في المستشفى باسم ميشيل. ما رأيك بهذا الاسم؟ اقترح مبارك وهو يأكل قطعة خبز مع جبنة البقرة الضاحكة.

- ميشيل؟ طيب ميشيل... ميشيل.

- حسناً. قال مبارك مدشناً رسمياً اسم البائع.

اتفق الثلاثة على هذا الاسم وهم ينتهون من تناول طعامهم. جبن. سردين. تونا. مرتديلا. فول. بسكويت. شيبس. عصير برتقال. قهوة باردة. جمعوا في بطونهم ما لا يجتمع.

- لا أعتقد بأنني تناولت مثل هذا الخليط من الطعام من قبل. قال ميشيل.

- المهم أن نشبع. قال سعيد. كلُّ أيِّ شيء ما دام اسمك مستعاراً!

ضحكوا بصوت عالٍ. ثم فتح كلُّ منهم زجاجة مياه معدنيّة وعبّوا منها كما لو كانوا في جحيم من عطش.

فجأة رنّ هاتف مبارك، الهاتف الوحيد الذي كان بحوزتهم فأخرسهم.

- ألو... -

- ألو... هل أنت مبارك؟

- نعم... نعم.

- أنا بو علي.

- من بو علي؟

- أنا والد زوجتك!

- والد زوجتي! هل أنا متزوج؟

- أوه يا مبارك... هل أصبت أيضاً بهذا المرض اللعين؟

- نعم... يبدو ذلك.

- حتى زوجتك سعاد أصيبت هي الأخرى. لقد اصطحبت الأولاد إلى بيتنا وعدت الآن لكي أبقى مع سعاد في بيتكم. متى تعود؟

- هل تمزح يا عمّي؟

- نطق كلمة عمّي غير مصدّق وكاد أن يضحك. لكنه استمرّ:

- كيف أعود وأنا لا أعرف العنوان؟ كيف أصل إليكم؟

- وأين أنت الآن؟

- لا أعرف؟

اللجنة... ما هذا اليوم؟ ما الذي يحدث؟ إن وجدت أحداً يمكن أن يقودك إلى هنا أو يخبرك عن المكان الذي أنت فيه فسأمرّ عليك.

- وما هو عنوان بيتنا؟ للاحتياط... فقط.

حسنًا دونّ عندك.

- هل عند أحدكما قلم؟ سألهما مبارك.

أخرج البائع الذي أصبح اسمه ميشيل قلماً من جيبه وأعطاه لمبارك الذي شرع يدوّن على ورقة صغيرة عثر عليها على الأرض:

- منطقة غرناطة، قطعة 5، شارع الأندلس، منزل رقم 16.

- حسنًا حسنًا يا عمي. لكن قل لي هل أصيب الأطفال بفقدان الذاكرة؟

- لا يبدو ذلك. يقولون بأن الأطفال دون سنّ البلوغ لا يصابون بهذا الوباء. محصّنون!

□

- الحمد لله.

أقفل الهاتف متفقين على التواصل.

- احتفظا بهذا العنوان أنتما أيضاً، فربّما نسيته. ذاكرة وحيدة لا تستطيع أن تحتفظ بعنوان واحد طوال الزمن. الأماكن مصيدة للتسلل.

- أنت بالفعل محظوظ. الآن لقد عرفت على الأقل أن لديك زوجة وأطفالاً وحمواً وعنواناً.

- نعم... نعم. ولكنني لا أتذكر زوجتي ولا أطفالي. هل يعقل هذا؟ اللعنة مرة أخرى!

- لماذا؟

- نسيت أن أسأله كم طفل عندي وما أعمارهم وأعمارهم!

ضحكوا جميعاً كالمجانين.

صاحوا تقريباً في وقت واحد: أي مسرحية هذه!

- هل قلت بأن الأطفال محصّنون ضدّ هذا الوباء؟ سأل سعيد.

- نعم. هذا ما قاله عمي على الأقل!

- يا ليتني كنت طفلاً!

صرخ مبارك كالمذوغ ضارباً جبينه بيده: وأيضاً لم أسأل عمي لماذا لم يصب هو بهذا المرض؟

- صحيح. لماذا؟ قال البائع ميشيل.

- لماذا؟ تساءل سعيد هو الآخر متعجباً من هذا المرض الذي يختار من يشاء بعثية وعشوائية غريبة.

صاح ميشيل وسعيد معاً باتفاق فيزيولوجي.

فجأة كما لو كانت اللحظة مثل سقوط صاروخ سكود اقترب جيب مسرع باتجاههم وهم غافلون وشرع أفرادهم يُطلقون النار في الهواء. ارتعب الثلاثة وتسمّروا في مكانهم. نزل ملثمون ثلاثة من الجيب بينما بقي السائق وراء المقود:

- من أنتم؟

- لا نعرف؟

قالوا بصوت واحد متذبذب.

- هل لديكم بطاقات أو هويّات؟ أيّ شيء يدلّ عليكم؟

– أبدأ.

– فتشّوهم!

شرع اثنان بتفتيشهم. بان القلق الشديد على وجه سعيد. تعرّق. لكن واحدا منهما صاح:

– لا شيء سيدي معهم. لا هويات ولا بطاقات.

صاح رئيسهم:

– هل أنتم من حزب المحافظين؟ أم من حزب الأحرار؟ أم من ذوي الأيدي الطويلة؟ أم... ليبرال؟ أم موالون للحكومة العميلة، أو أيّ حكومة من الغرب الكافر؟

نظر كلُّ منهم إلى وجه رفيقه في حيرة.

– ماذا بكم؟ تكلموا... من أين أنتم؟ من أيّ حزب أو جماعة؟

أجبر سعيد نفسه على الشجاعة:

– أقسم لكم بأننا حتى لا نعرف أين نعمل قبل انتشار هذا الوباء؟ أعني وباء انهيار الذاكرة. لا أحد منّا يعرف شركة الأيدي الطويلة، أو شركة المحافظين، أو شركة الأحرار! أو شركة جنرال! فنحن هنا تائهون منذ الصباح... ولا نعرف حتى من تكون حكومتنا العميلة الكافرة!

ردّد الأخران مبارك وميشيل: نقسم بالله لا نعرف حكومتنا العميلة الكافرة!

ضحك الملتزمون من هذا الهراء...

– شركة المحافظين! هههه لم أقل حكومتنا الكافرة. حكومتنا عميلة فقط!

قال الأضخم جسدا منهم. ردّ الآخر الذي كان يحمل رشّاشا ويتدلّى من خصره مسدس:

– هل تريدون طعاماً؟

– لدينا...

– سيكون من الأفضل لكم ألا تعرفوا شيئاً. وإن كنتم تكذبون وكان أحدكم من حزب المحافظين فسوف أفرغ هذا الشريط من الرصاص في جثته!

قال الرجل البالغ حجم ثور وهو يأمر أصحابه بالانسحاب.

ردّ البائع ميشيل مجترياً:

- ولكن يا أخي العزيز من أنتم؟

- نحن من الأحرار! الحزب التي سينقذكم من هؤلاء الفجرة!

امتطوا الجيب فأضاف الرجل الضخم وهو يلتفت نحوهم:

- نحن الدولة!

قال وقد لفّ غبار عجلات السيارة كلماته مغلفاً إيّاها لئلاً تسقط على الأرض.

- الدولة! أية دولة؟

ظلّوا فاغري الأفواه لدقيقة قبل أن يلتفت ميشيل لرفيقه:

- لماذا يريد أناس يشتغلون في شركة الدولة أو الأحرار أن يبيدوا أناساً يشتغلون في شركة المحافظين؟ أو شركة ذوي الأيدي الطويلة أو جنرال أو أيّ شركة أخرى؟

جنرال موتورز... ربّما. قال مبارك.

- هل هناك شركة باسم جنرال موتورز؟ سأل ميشيل.

- أعتقد...

ردّ سعيد بعقل مشتت وهو ينظر إلى أفق مدينة يلتهمها النسيان والأحزاب وفقدان الأمل.

## الفصل الرابع

امرأة

اقترب منتصف الليل من خطواتهم وهم يتمشون بين أزقة العاصمة بلا هدى، واصلاً من أفق بعيد وعلى ظهره زوادة النجوم. بينما شارف شحن بطارية هاتف مبارك على النفاد. فكّر أن يتّصل ثانية بوالد زوجته أو حتى بزوجته التي قال له صهره بأن اسمها سعاد. ولكن حماسه فتر فوراً مثل محرّك سيارة تعرّض لعطل مفاجئ.

– ماذا سأقول لها؟ تتمم ملتاعاً.

شعروا بأنهم تخلّصوا في وقت مناسب تقريباً من هويّة مبارك والمدوّن بها: شرطي. قبل أن يصل هؤلاء المجانين من شركة الأحرار. أمّا ميشيل فقد شعر بأنه قد سلّب حقه الطبيعي في أن يعرف من هو. لا يتذكّر كيف فقد حافظته نقوده وفيها بطاقة هويّته. ربّما سقطت منه أرضاً عندما فرّ معهما من المحلّ قبل أن يدخل اللصوص. حتى المحلّ بالكاد يتذكّره الآن. أما هاتفه الجوّال فرّبما كان على الطاولة عندما دخل مبارك وسعيد عليه في المحلّ. هذا هو التفسير الذي عثر عليه في مخيلته، حامداً الله بأنه على الأقلّ لا يزال يملك مخيلة. فقدان الذاكرة أيضاً درجات. ولم يتوصّل إلى وقت فقدانه للذاكرة. هل فقدتها قبل أن يخرج من المحلّ أم بعد أن خرج معهما.

– هل تعلم بأننا تخلصنا من هويتك في الوقت المناسب وإلا لكانا قد تورطنا مع هؤلاء الوحوش؟ قال سعيد.

– نعم.

ردّ مبارك وهو ساهم وعيناه زائغتان بلا هدى مفكراً بعائلة لا يتذكّرها.

فكّر سعيد بأنهم لو عثروا على هوية مبارك لكانوا قد قتلونا جميعاً أو على الأقلّ لقتلوا مبارك. بما أن الحكومة بالنسبة لهم عميلة أو كافرة. ومبارك المسكين كان يمثّل الحكومة. يا إلهي. حمداً لله.

كانت هناك مجموعة تجلس قرب مدخل عمارة وهي تتدفّق قرب نار مشتعلة وتشرب الشاي. بدوا مثل آخر ناجين من كارثة وسط وهدّة عميقة من الأسى. توخّش الليل. صار عباءة سوداء في حداد جماعي. والبنائيات شواهد قبور بأطوال مختلفة تجلدها الريح والفوضى والخوف. سلّموا عليهم مقتربين بحذر. همّ مبارك أن يسألهم عن العنوان، لكنه تراجع بفعل نظرة أحدهم التي كانت عدائية تقريباً. مثل نظرة ذئب شرس ينهشه الجوع والغريزة. اشتم سعيد رائحة فتك في الجو. أمسك بيد رفيقه مبارك ساحباً إيّاه من مصير غير مأمون. أحسّ بأن الجو مسعور وأنهم دخلوا بالخطأ إلى تكنة متوحّشة.

ارتعب ميشيل واستدارت عيناه كقرصي شمس وقت المغيب، مطلقاً صرخة:

– ما بك؟ سأله مبارك.

أشار بإصبعه إلى جثة في المنعطف ملقاة على الرصيف.

– يا إلهي!

جذباه من أكاماه وسحباه بعيداً عن المشهد. بدت الجثة حديثة الموت. وجه جثة الرجل منكفى على الإسفلت وخيط من الدم الأسود سال حتى فتحة قناة الصرف الصحي. كانت يداه ممدودتين على الإسفلت وبدا بأنه يمسك بورقة في يده اليمنى. جرى سعيد نحوه محاولاً أن يسحب الورقة من يد الرجل الذي كان ربما قبل ساعات حياً مثلهم يبحث عن أمل أو أسرة أو حلم. كانت اليد متشبثة بالورقة. متببسة كأنها من الفخار وقد خرجت من فرن صانع التماثيل ممّا اضطرّه إلى أن يقرص أمام الجثة لكي يفك أسر الورقة من يد الجثة. سحبها بقوة وهو يخشى أن ينتزع اليد معها، بينما وقف مبارك وميشيل في ذهول. لم يتوقفاً ما يحدث أمامهما. اعتقدا بأن سعيد يوشوش في أذن القتيل المغدور برصاصة.

عاد سعيد وهو يجري. توقّف لاهتأً. أشار بيده ملوحاً بالورقة. ودون أن ينتظر أكمل سيره فلحقا به.

ارتعشت جثتهم الحيّة وهم يتجاوزون هذا المشهد. لم ير أيّ منهم جثة قتيل من قبل. لكن مبارك على الأرجح، بوصفه شرطياً، ربما يكون قد رأى جثة قتيل أو أكثر. لكنه لا يتذكّر الآن. سأل مبارك نفسه: كيف مات هذا الرجل؟ بأيّ سلاح؟ ميشيل ردّد: ربي أنقذنا من شياطين الإنس والجن. بينما كان سعيد يفكّر بالرجل المغدور وبمضمون الرسالة التي وضعها في جيبه. فكّر مبارك بالأفكار نفسها. بالشيطان والجحيم. بالقتل. وفي آخر تفكيره استدعى مشهد الرسالة في ذهنه وسعيد يحاول انتزاعها من الجثة.

كانوا يبحثون صامتين تقريباً صمت القبور عن مكان لقضاء هذه الليلة المرعبة حتى الصباح. سمعوا صوت هدير يقترب من البعيد. أصغوا للصوت الذي ما لبث أن اقترب منهم.

– إنها طائرة!

– لا إنها هليكوبتر!

أضاءت الهليكوبتر السماء بأنوارها وضجيج أجنحتها الهدّارة وهي تمضي ناحية البحر مثل وحش كاسر يبحث عن فرائس يراها ولا تراه. فكّر سعيد من تراهم يكونون؟ قال لمبارك وهو يرتجف:

– أكاد أموت من البرد!

نزع مبارك معطفه ولفه حول سعيد الذي لم يرد أن يأخذه من رفيقه لكن مبارك كان عملياً جداً:

– اسمعاني جيداً... كل واحد يرتديه ربع ساعة. لن نبخل على بعضنا بعضاً بالقليل من الدفء حتى نعرف ماذا حدث لهذه المدينة التي يبدو بأنها قد أصيبت بالجنون.

ربما كانت هذه هي الحياة الحقيقية لهذه المدينة ونحن مجرد زوّار حياة! قال ميشيل.

– نحن حكماء بلا ذاكرة. هائمون على وجوهنا وقلوبنا الآن. لنكمل السير حتى نرى من المجنون نحن أم هذه المدينة. ردّ سعيد.

لولا اقتراح مبارك الذي رآه عادلاً لما كان سعيد ليقبل بارتداء المعطف الزيتي اللون.

انتابهم شعور حقيقي بأنهم في أول ليلة لهم في هذه الحياة. لا يعرفون هذه المدينة. ولأول مرة يمشون في منتصف الليل في شوارع تغطيها الظلمة والأنوار والنجوم، ويجوس فيها القتلة والجثث والنظرات المسعورة. لا يعرفون إلى أين سيذهبون. ولا أين سينامون، إن كان النوم هو نهاية طيبة لليل. مع اختراع السيارات اغترب الإنسان عن مدينته. لم يعد يمشي في شوارعها وبين أزقتها وأحيائها. أصبح غريباً عن مدينته. ما شعور المدينة نفسها وهي ترى أبناءها لا يكثرثون بها ولا بشوارعها ولا بأشجارها؟

كادوا مرة أخرى أن يصطدموا بجثتين هذه المرة. أووووه ما هذا؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. الناس ترى القتلى في الشوارع ولا تهتم. لماذا يقتل الناس بعضهم بعضاً. من أجل ماذا. حاول كل منهم الوصول إلى إجابة مقنعة. المدينة للجميع ولكن ما يزال هناك من يقتل. هذا يعني بأنهم مهددون بالموت حتى قبل أن يطلع النهار. حتى أنهم نسوا أمر الرسالة. وانطفأت أنوار الفضول في عقولهم.

تتاهى إلى مسامعهم صراخ امرأة من البعيد. إنها تستجد. ساروا لا شعورياً باتجاه الصوت الذي كان يثقب الصمت وهدأة الليل. كلما اقتربوا من مصدر الصوت كلما فقدوا السيطرة على أنفسهم. كعوب أهديتهم تتناغم مع أصوات تنفسهم المخلوع من صدورهم. أثار الصراخ حميتهم شيئاً فشيئاً موقظاً بالأخص حسّ الرجل الشرطي الذي تآكل داخل مبارك منذ الصباح، وبما أنه يعرف وظيفته السابقة كشرطي فهو يتحسّر الآن على فقدانه لمسدّسه الشخصي. حتماً كان لذيّ مسدس. قال بغضب. كان سيسحبه الآن من حزامه حيث كان مدلىّ لسنوات طويلة مزدهرة بالقوة ليصوّبه باتجاه هذا الظلام اللعين، وهو يركض بكل ثقة نحو صوت المرأة المستغيثة. الظلام استغاثة. اشتم مبارك عطراً قوياً. رائحة نفاذة. تساءل: ما هذا العطر؟

واصلوا بحماسة تتناغم مع رعب الصرخات المنفلتة من روح مستتجة.

التهموا الصرخات وسط الظلام. حتى عثروا على منبع الصوت المستغيث. إنه أمر لا يصدّق. كان هناك رجل يحاول أن يغتصب امرأة على مدخل إحدى البنايات الشاهقة. ومصباح الشارع قبيحة

ضوء فوقهما مثل مشهد في مسرحية. لم يكن الرجل يشعر بنفسه عندما انقضَّ عليه مبارك مسدداً إليه ركلة على صدره أطاحت به أرضاً، وكانت من القوَّة بحيث أنه لم يستطع النهوض على إثرها أبداً. بقي يتلوَّى في الشارع كالحرباء وسط أوساخ تكوَّنت بفعل يوم طويل.

كانت هذه الركلة من بقايا الزمن الشرطيِّ الأوَّل. ارتفع صدر مبارك بزهو ليس هذا وقته بالضبط. لكنه ارتفع وهو يلهث برعونة، عابثاً بمسدس متخيل في يده.

رفع ميشيل المرأة عن الأرض سائراً ثوبها بينما لفها سعيد بمعطفه الذي نزعه عنه على الفور وسط هلع الفتاة وارتجافها. أرجع مبارك الكاب الوهميِّ فوق رأسه إلى الوراء وهو يلهث نافخاً بطنه إلى الأمام. شعر برضا داخليِّ. خُيل له بأنه يشبه الأيام الخوالي. زخم منبعث من أعماق وعيه يزفره في الشارع المظلم. هل تدرب على هذه الضربة من قبل؟ إنها متقنة إلى حدِّ الدهشة التي تورمت في عيون ميشيل وسعيد.

ظَلَّت المرأة تنظر في وجوههم برعب أشدَّ من ذي قبل. فقد تخلَّصت من بين أنياب رجل لتجد نفسها بين أنياب ثلاثة رجال دفعة واحدة. سجَّل خيالها محضر محاولة الاغتصاب بكل تفاصيلها، فزادها ذلك رعباً على رعب وهي تجرّ نفسها من بينهم. قال لها سعيد محاولاً أن ينتزع منها أحاسيس الفريسة التي لا تزال في الأسر:

لا تخافي يا أختي. نحن هنا لنجدتك وليس لإيذائك. اطمئني أرجوك.

من أنتم؟

قالت وهي تبكي بحرقة وترتعش من البرد والخوف.

لا نعرف من نحن! ولكننا نعرف بأننا بشر مثلك ولا ننوي إيذاءك.

كان ميشيل ومبارك يؤمَّنان الطريق بعيونهما الأربع ماسحين الظلام مثل ماسح ضوئي تحسباً لهجوم من مجهولين لا يرون في هذا العالم سوى فرصة، وفي هذه الفوضى وقتاً مثاليًا لارتكاب الجرائم. بينما وقف الآن الرجل الذي حاول اغتصاب المرأة وهو يترنَّح من السكر، بشعر منفوش، وثياب متسخة بأحوال الطريق، متجها ناحية آخر الشارع متوعداً:

- يا أولاد الكلب! سأريكم من أنا!

بانث بعض ملامحه وملامح جسده المكور مثل خنزير. لم يبخل كرشه بمنحه تشوُّها مضاعفاً. والآن يمكن تقدير عمره بالخامسة والأربعين. وجهه المدور وأنفه الضخم وشاربه المستميت على وجنتيه، كلها ترسم صورة كاريكاتورية لوغد أصيل.

قال مبارك:

– من الأفضل الانسحاب فوراً من هذا المكان وإلاّ عاد هذا الرجل ومعه عصابة لن نستطيع مواجهتها.

– أين تسكنين؟ ومن هذا الرجل؟ سألها سعيد.

ردّت الفتاة التي كانت ترتدي ثوبا طويلا بصوت واجف من البرد والخوف الذين اجتمعا في قلبها، فأصبح يدقّ بقوة على جدار صدرها، يريد الخروج منه، حتى أنهم جميعا قد سمعوا قوة طرق قلبها على الجدار كأنه صدى أجنحة طائر بعيد:

– لا أعرف أين أسكن.

بحثت عن حجابها الذي انتزعه من رأسها الرجل السكران، مكلمة بعبارة مترددة فلقها الحياء إلى نصفين:

– هل أنتم من حزب المحافظين؟

## الفصل الخامس

### المتحف الوطني

وصلوا قرب ساحل البحر. لاحت لهم من بعيد إنارة خفيفة تحت لافتة مكتوب عليها بخط كوفي جميل: المتحف الوطني. الأنوار مثل رذاذ خفيف متقطع يحاول أن يغمر الواجهة الزجاجية الفخمة.

هرعوا باتجاه هذا المبنى المطل على البحر كما لو كان ينوي الهجرة على أول سفينة قادمة إلى الميناء. تأكّدوا من أنه لا يوجد حارس على البوابة ثم دخلوا. هل يعقل بأنه لا أحد هنا ولم يسبقهم أحد إلى هذا المبنى الهائل. تساءلوا. ظل مبارك يراقب الشوارع بحسّ أمني. كان آخر من دخل المبنى. شعروا بأنهم يدخلون إلى التاريخ. لا تزال هناك سيارات مجهولة تجوب الشوارع. كانت أصوات السيارات مرعبة. لكنها بعيدة عنهم في الشوارع الفرعية من المدينة. لم تقترب من المبنى أيّ سيارة.

هالهم ما رأوا. تسمّروا في أماكنهم.

انتابهم شعور بأنهم سيصبحون قريباً جدّاً كائنات محنّطة دخلت بإرادتها إلى قاعة للعرض في متحف. كائنات بلا هوية وبلا ذاكرة وبفرص حياة أقل. أصبحت الفتاة تشعر الآن شيئاً فشيئاً بأمان أكثر وهي برفقتهم. كادت أن تتعثّر لكن سعيداً أمسك بيدها. التقت عيناها بعينيها. رأت لأول مرة ملامح وجهه وعينيها اللامعتين ببريق تتجمّع فيهما رعشات أنوار المبنى. شكرته بكلمات ملحنّة راعشة. ما زالت تشعر بالخوف. هل ما يحدث فخّ لها؟ قلبها يدق بسرعة. وضعت راحة يدها على صدرها وبسملت.

واصلوا سيرهم بتيّار الدهشة الأخاذ نفسه في ردهات المتحف المتعرّجة والطويلة ثم هالهم المنظر داخل القاعة الرئيسية:

□

– يا الله...

– هل لدينا هذا ولم أدر عنه؟

– إنه حيوان ضخّم للغاية!

– إنه ديناصور!

قالت الفتاة:

– ألا تعرفون الديناصور؟

– حسنا يبدو أن العالم كله مشغول عنيًا في هذه الليلة بهذا الوباء. لنقض ليلتنا ها هنا في ضيافة هذا الديناصور، وفي الصباح يقدر لنا الله الخير.

– أنا شخصيًا أعرفه لكنني لم أفكر يوما بزيارته! قال ميشيل.

قال مبارك بثقة ولكن الفتاة تراجعت إلى الخلف خطوة تتم عن الخوف.

– لا عليك. سنحرسك جميعا.

عرف سعيد بماذا تفكر فتاة وحيدة مع ثلاثة رجال أغرب لا تعرف حتى هذه اللحظة أسماءهم أو انتماءاتهم.

ألقت كرة نظرها الحاد عليهم متفحصة لأول مرة أطوالهم، فكّرت ماذا لو اجترأ هؤلاء الثلاثة عليها دفعة واحدة؟ أطولهم كان مبارك وأقصرهم ميشيل. لم تكن تعرف أسماءهم. قاست أطوالهم بعينين حذرتين. لا أحد هنا لينقذها منهم سوى هذا الديناصور. هل تورّطت بالمجيء معهم. لا أحياء هنا. هنا فقط الموت معروضا في كل مكان. فما المتحف سوى مقبرة كبيرة جدًا باسم مهذب هو المتحف المتحف مقبرة كبرى الجثث فيها فوق الأرض. وفي أقفاص زجاجية. حتى الشواهد موجودة أمام كل كائن حي. أين عاش وفي أي عصر أو بلاد. ومتى مات.

– ما بك؟

قال لها سعيد. فأشارت بحاجبيها رافعة رأسها بحركة إشارة إليهم هم الثلاثة.

– تقصدين بأنك تخافين منا نحن الثلاثة؟

رد سعيد وهو يقهقه.

فركوا أيديهم جميعاً في وقت واحد. ثم رموا بجثثهم المتعبة على الأرض وهم يزارون بأصوات عالية كما لو أنهم كانوا صامتين منذ مائة عام وعادت إليهم أصواتهم الآن. قلد مبارك صوت رجل نائم يشخر.

– علينا أن نمحك اسما.

قال ميشيل. مضيفاً:

– اسم نمشي به الحال حتى تعرفين اسمك الحقيقي.

نظرت إلى الآخرين بارتياح:

- سارة.

- سارة؟

نعم. سمعت هذا الاسم بالذات اليوم...

- حسنا سارة. وليكن...

نهض سعيد مستطعاً المكان. كان يبحث عن دورة مياه. رأى الإشارة بارزة في نهاية القاعة. ارتاح لهذا الاكتشاف. قال لهم:

سأذهب إلى دورة المياه. سأكتشفها لكم.

- ذهب وحيداً. بينما ظل الآخرون يشعرون باجتماع الإنهاك والبرد والضياع على أجسادهم التي شهدت واحداً من أطول الأيام في التاريخ.

دخل سعيد إلى دورة المياه حذراً. أطرق السمع لبرهة. ليس هناك أحد غير الصمت. نظر سعيد إلى وجهه في مرآة دورة المياه. نزلت عليه صاعقة برد ورعد وبرق دفعة واحدة. كيف يحدث هذا؟ لمن هذا الوجه؟ كان يعتقد بأنه رجل في الستين من عمره وقد ساهم تراكم التعب في جسده بتعزيز هذا الإحساس لديه، وإذا بوجهه، وهو الآن وجهاً لوجه أمامه، يوحي بأنه في حوالي الثلاثين من عمره فقط لا غير. هكذا قدر عمره. لكنه لم ير هذا الوجه على الإطلاق من قبل. من أين أتى إليه هذا الوجه؟ كيف حل في رأسه ليصبح هويته؟ بلا مرآة ولا ذاكرة لا نستطيع حتى تقدير أعمارنا. يا إلهي. هل يعقل أن ينسى الإنسان عمره؟ كان يتصرف بجسد رجل ستيني. عليه الآن أن يعدل من حركة جسده لكي يبدو في حركات وسلوك رجل في الثلاثين من عمره. تعرّف منذ صباح أمس على وجوه عديدة ليس من بينها بالتأكيد هذا الوجه. تلمس تقاطيعه الحزينة بأطراف أصابعه. تلمسها وهي على وجهه. وهي على المرأة. صرّ الزجاج. شرع يمسح الأحزان عن هذه التقاطيع، كما يمسح رجل مسافر ندى الصباح عن مرآة سيارته. من أين أتت بصمات كل هذه الأحزان إلى وجهه. تراجع. مسّ وجهه برفق غير مصدق. هجس: ولكن لماذا يبدو هذا الوجه حزينا بشكل مريع؟ يا إلهي! ما الذي تعرّض له صاحب هذا الوجه طوال عمره؟ ميشيل ومبارك وسارة مثلي قد فقدوا ذكراتهم لكن وجوههم لا تزال نضرة. لماذا أنا؟ هل كنت قبل هذا الوباء إنسانا مكتئباً؟ يائساً؟ عاطلاً عن الأمل؟ والعمل؟ ما قصتي؟ ما قصتك يا هذا الوجه؟ بل ما قصتك يا صاحب هذا الوجه الحزين؟

انتابه حزن شديد غير من حالته النفسية على الرغم من أنه فرد جسده إلى أعلى رافعاً كلتا يديه.

فتح صنوبر المياه وتركه يتدفق مثل شلال صغير، ثم بدأ يسكب الماء على وجهه المرتعش لكي يجري له إنعاشاً اصطناعياً لردّه إلى الحياة. خطر له بأنه في قبر كبير أو منفى وفيه كل عظام هذه الحيوانات. قال في سرّه: المتحف قبر. المتحف منفى. وأنا عظام!

ثم بقی.

## الفصل السادس

### غدا تشرق الشمس

عندما عاد سعيد من دورة المياه كان الجميع منشغلاً بالبحث عما يصلح لكي يلتحفوا به كأغطية ومخدّات. لم يعثروا على شيء ذي بال في القاعة الفسيحة فانطلقوا باحثين في الردهات وداخل المكاتب، ولكن بحذر شديد. لم يكونوا واثقين تماماً من خلوّ المكان من الأشرار مختبئين كما تختبئ الوحوش ليلاً ثم تخرج في الصباح لكي تنقضّ على فرائسها.

تأمّل سعيد سارة وهي تصليّ في ركن من أركان القاعة. استغرب ذلك في البداية متذكراً ما عدّه مؤشراً جميلاً: الصلاة. ننسى كل شيء إلا الصلاة. الصلاة جزء من الحدس. ربّما كان القلب. أو الروح. فإن خانتنا الذاكرة لا تخوننا الصلاة. الصلاة لا ذاكرة لها. الصلاة هي الذاكرة الحقيقية التي لا تنهار ولا تنفد، ولا نفقدها أبداً. الصلاة في وقت الوباء اتصال بالله.

تكرّر أيضاً وجه سارة المرعوب حين رآها أوّل مرّة وهي تبكي. استعاد تفاصيل وجهها الجميل. شعرها أشقر. وعيونها حتى وهي باكية فيها بريق يشي بامرأة ذات مبدأ في هذه الحياة. امرأة حقيقية. كانت أجمل ما يكون وهي تبكي قبل أن تلتفّ شعرها بالحجاب الأبيض. أنفها الصغير المرتفع يضفي عليها اعتداداً بالنفس يكاد يكون أرسقراطياً. أما عيناها العسلّيتان الواسعتان فتجذبان الأنوار إليها والفراشات لو مرّت في بستان. تساءل: أيّ امرأة كانت قبل أن يحل هذا الوباء؟

ترجع إلى الخلف منطوياً على نفسه. ستكون هذه الليلة استثنائية حيث النوم في متحف مع حيوانات نفقت منذ مئات السنين وبعضها منذ آلاف السنين، مثل هذا الديناصور الذي لم يبق منه سوى عظامه المسنودة على أعمدة، لا شك بأنه سيكون نوماً غير ممتع! لكنه نوم مع الموت. الشروع بالموت. أفتع نفسه بأنه أفضل من موت الشوارع التي مرّوا بها طوال هذا اليوم.

قدّر في نفسه.

– ماذا لو وضعوا هياكل الإنسان العظمية في المتحف؟

بعد انتهاء سارة من صلاتها اقترب منها محاولاً الاستفسار منها عن الصلاة. شرحت له. قال لها بأن هاجساً إلهياً يدعوه إلى الصلاة. هجس: كيف كاد أن ينسى الصلاة؟ هل عليه أن يصليّ الآن ما فاتته من الفروض طوال يومين. أكّدت له وجوب ذلك. استحسن الأمر واضعاً يده على قلبه، ثم شرع يصليّ في ركن بعيد. لا يعرف في قرارة نفسه إن كان صليّ وفق الطريقة الصحيحة. قال في سرّه: هل يمكن أن أكون قد نسيت كيف أصليّ؟ يا ويحي. ما هو متأكد من أنه شعر بأن الله قريب جداً منه، إلى درجة أنه سمع رحمته تسري في عروقه وخلايا جسده، وشعر بارتعاشها. وها هو يمنحه

القوة والطمانينة التي تحوّلت إلى ذاكرة أبدية غير مؤقتة. من يفقد الذاكرة يتولاه الله بذكرى فخمة.  
دعا الله، خالق كل شيء، أن يخلصهم من هذا الموقف العصيب والبلاء الغريب.

□  
ثم قال: يا الله. هل أنا غريب؟ من هذا البلد؟ من غيره؟ من أراضيك التي بلا حدود. من أنا؟ أتذكر  
بأنني قريب الصلاة بك. أتذكر أنني مؤمن. أتذكر بأنني أحلم كثيراً. لكنني أنسى. هل نسيت كل  
هؤلاء الناس؟ ولماذا يا رب لم يفقد هؤلاء الأشرار من المسلحين الذين رأيتهم اليوم ذكراهم؟ هل  
نحن فقط من انهارت ذاكرته أم كل من في هذا العالم؟ هل لدي زوجة؟ أطفال؟ أم وأب؟ أخوة؟

ربّ هذا العالم بكلّ أسرار الكون وقلبي... من أنا؟

□  
بكى. بصمت لا يقيس أبعاده إلا الله.

هل عليهم أن يشعلوا ناراً أم أنهم سيكتفون بلفلفة أنفسهم بما تيسر لديهم حتى الصباح.

قال مبارك:

– يجب أن نعمل على الوصول إلى أهلنا غداً صباحاً.

– وكيف ذلك؟ هل لديك خطة ما؟

استفسر ميشيل بقلق تبدّى في عينيه الضيّقتين وذقنه الدقيقة.

– لا أعلم... لكننا يجب أن نصل إلى العنوان الذي بحوزتنا. أعني عنوان بيتنا.

– معك حق.

قال سعيد الذي وصل إليهم للتوّ مضيئاً:

– على الأقلّ سيكون لدينا مكان للاحتماء به. وربّما من خلال أقاربك سيصل كلُّ منا إلى أسرته قبل  
فوات الأوان!

اقتربت سارة بحذر:

– ماذا تعني قبل فوات الأوان؟

ارتفع حاجباها بلون الذهب. كانت على وشك البكاء. أو هكذا تخيل سعيد الذي أغرم بوجهها الباكي.

– أعني ربما ستفقد الدولة بأكملها ذاكرتها وحينها...

لم يستطع أن يكمل. من يستطيع في الحقيقة أن يكمل ويتنبأ بماذا سيحدث؟

– ما الذي سيحدث؟

شعّ الخوف فجأة من عيني سارة حتى فاحت رائحته.

لا شيء. لست متأكداً، لكننا سنفقد الاتصال بأسرنا للأبد! أو على الأقلّ حتى تعود إلينا ذكراتنا الفارّة منا. ولا نعلم متى.

قال سعيد متوتراً وقد ارتسم على ملامح وجهه خربير جداول من القلق بانّت في الشعيرات الدقيقة لخديّه وجبينه.

– سنهيم على وجوهنا في الشوارع.

أضاف ميشيل محاولاً التهوين على سارة:

– لا تهتمّوا. سنكون أحراراً أكثر! ضحك مبارك ضحكة من يريد أن يهدّي من مخاوفه هو شخصياً قبل مخاوفهم.

– غدا تشرق الشمس!

ردّد سعيد ثلاث مرّات بصوت واثق. بينما تخيل الثلاثة الآخرون الشمس وهي تشرق في جوّ ربيعي. الخيال كان متحفزاً لتحويل كل كلمة جميلة إلى حلم يقظة يتوارى وراء الليل خجلاً.

ثرثروا بما سمحت لهم به قواهم الجسدية المتبقية من يوم مرهق. كانت أحاديثهم هذياناً غير منتظم. تلبّلت ألسنتهم شيئاً فشيئاً حتى فقدت قدرتها. ثم خلدوا إلى نوم عميق مثل كوة في كهف الدنيا العميق.

## الفصل السابع

### ديناصور طروادة

تدافعت قطعات الفجر العسكرية مقتربة دون أن يلتقطها أحد سوى سعيد الذي كان يحلم بأنّ وابلًا غزيراً جدًّا من الرصاص، بل غيوماً من الرصاص، جاءت عبر بحر الخليج العربيّ وهبطت فجأة فوق رؤوسهم. كان يحتمي من هذا الرصاص الغزير خلف جثة حيوان متكلس، لكنه شاهده يتقّب أجساد أصدقائه الذين عرفهم خلال هذا الوباء. تحرّك الديناصور الهائل من مكانه. كان كبيراً جدًّا وهائلاً وحتى أكبر ممّا تخيل عندما رآه في المرّة الأولى، جارًّا قدميه الضخمتين، داکًا بهما الأرض، بينما لم يستطع سعيد أن يتحرّك من مكانه مثلما لو أنه كان ميتًا منذ يومين. مجرد جثة مطروحة على قارعة الطريق كأَيّ جثة رآها يوم أمس في أحد شوارع المدينة. هذا الحيوان العملاق اتضح بأنه ديناصور طروادة. إما أنه كان حصاناً كبير وترعرع في هذه المدينة دون أن يشعر به أحد. وإما أنه كان مجرد ديناصور ميّت في هذا المتحف ثم انبعث فجأة من موته لكي يذيق هذه المدينة النكراء الهزيمة والفناء.

انتفض رعباً، رافعاً رأسه عن الأرض وهو يشهق:

□

– أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فزعاً مِّن حلمه الكابوسيّ وهو ينظر إلى أصدقائه النائمين مندهشاً من أن لا أحد منهم قد شعر به، حمد الله بأنه مجرد كابوس وليس حقيقة. بعض الحقائق كوابيس، وبعض الكوابيس حقائق. ولكنه شعر وهو يلهث متعرقاً بأنه كان كابوساً مرعباً وأقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال المجنّح بالسواد الأعظم للحياة. نظر إلى صدره وجسّ جسده كمن يريد أن يتأكّد من أنه ليس واهماً إلى هذه الدرجة. كان لديه رغبة أخرى. أن يرى وجهه الآن في المرآة. هل تغيّر عن البارحة؟ هل هو حقاً لم يتغيّر بعد هذا الكابوس؟ لم لا يفقد وجهه كما فقد ذاكرته فجأة؟ أمسك وجهه بكلتا يديه. مرّر أصابعه على كلّ أجزاء وجهه ورأسه كما لو كان ينزف دماً.

ثم فجأة تذكر الكابوس، فخطرت له خاطرة مرعبة. أن يكون الديناصور الميت منذ آلاف السنين قد قام من موته وخرج يدمر المدينة. نهض من مكانه لكي يتأكّد من وجود الديناصور. مشى بحذر وقلبه يدقّ مسامير في الهواء. استرق السمع. لا شيء. تقدّم نحو القاعة الفسيحة. كان الديناصور هناك في مكانه لم يفكر بعد بالانطلاق. ما هذا الكابوس. هل هو تحذير من نحس أم كارثة.

رأى ظلاً من بعيد. لم يتعرّف على الظلّ. التفت ناحية مبارك وميشيل فوجدهما يغطّان في نوم عميق، ثم بحث عن سارة في مكانها البعيد هناك تحت المكتب فلم يتبيّن لها. غيّر مكانه وهو لا يزال تحت تأثير الحلم ذي الرصاص الغزير. دار حول نفسه ثم اتجه ناحية الظلّ. شعر بالخوف عليها.

استغرب من نفسه. هل حقاً كان منذ وهلة يبحث عن الديناصور ويتحقق من أنه لم يغادر مكانه في قاعة المتحف؟

رأى الظلّ.

إنها ساره تصليّ.

انتظرها دون حركة حتى انتهت من صلاتها. نظرت باتجاهه وهي تسلّم ففهم منها أنها تدعوه إلى الصلاة. ذهب إلى حيث مكان الحمامات في الزاوية البعيدة مسرعاً وبلهفة ملقياً نظرة أخرى على وجه الغريب الذي يحمله. تهيأ له بأنه قد اختلف عن ليلة البارحة. الملامح غريبة عنه. لم يتعرف على وجهه في هذا الفجر. كأن خطوطاً كخطوط العدو تترنّج على وجهه. جسّ جبينه لكي يتأكد. لكن ممّ كان يريد أن يتأكد؟ هل من يفقد ذاكرته من لحم ودم. أم أنه ربما ليس سوى روح هائمة في هذا اليئم المشاعريّ الهلامي.

توضّأ ثم عاد إلى حيث مكانه لكي يصليّ الفجر.

بعد أن انتهى من الصلاة أشارت ساره له بأن يوقظهما، مبارك وميشيل، على الأقل للصلاة قبل أن تشرق الشمس. يجب أن يكونوا جميعاً مستعدّين لكل ما يمكن أن يستجد. استيقظ الجميع. تركوهما يصلّيان. بينما توجّه سعيد وساره ناحية الواجهة الزجاجية حيث الفجر يغزل أكبر سجّادة صلاة في العالم من خيوط أشعة الشمس برائحة نسيم صباحيّ، مبهراً أنفاس البحر الذي تتلاطم أمواجه من الجهة الأخرى.

لا يلبث أن يدخل علينا أحد مع دخول الصباح إلى هنا.

علينا أن نرحل قبل الساعة صباحاً. فللصباح موظّفون أيضاً يأتون لتفقّده....

قالت وهي تنظر إلى وجهه مباشرة.

أبقى عينيه خفيضتين. من يدري كيف يمكن للعينين أن تفعلوا برجل ليس لديه ذاكرة؟

همّ أن يقول لها: ولكن إذا كان الموظّفون قد فقدوا ذكراهم فكيف يفكرون بالحيوانات في المتحف؟

رفع عينيه فرأى رموش عينيها الذهبيّتين. قال لها:

لا أحد سيداوم هذا اليوم!

وفي ذهنه كانت جملة أخرى تتقلّت من قبيل: ولا أحد سيقاوم عينيك!

## الفصل الثامن

### الكيمتريل

في الصباح الباكر كانت البلاد تعجُّ بالوباء الذي لم يعرف أحد سبباً واضحاً له. بدأت صافرات الإسعاف تصل أصواتها إلى داخل المتحف مع بزوغ نور الفجر الذي أطاح بالظلام بضربة قاضية.

جاء الصباح وحرّك المحظور والمستور والنائمين.

كان يجب عليهم على أيّة حال الخروج من هذا المخبأ، فمن يدري متى سيأتي المسؤولون عنه وحينها قد يجدون أنفسهم في ورطة اقتحام مبني رسمي. هذا على افتراض بقاء السلطة في مكانها. تجوّل سعيد في المتحف ووقف مذهولاً أمام كل هذه الأجساد المحنّطة. تخيل بدلاً منها آلاف أجساد البشر. فكّر بأن البشر هم الجديرون بالبقاء في صناديق العرض الزجاجية هذه، وليست هذه الحيوانات المسكينة التي لم تعمل سوءاً للبشرية أو للأرض وللطبيعة. لفت نظره أن المتحف لا يضم سوى بقايا كائنات عاشت على هذه الأرض ثم رحلت بصمت لكن الإنسان حفر الأرض واستخرج هياكلها العظمية وكدّسها في هذا المكان مطلقاً عليه اسم: متحف. بماذا يفيد هذا المكان؟ سأل نفسه. لطلبة الأحياء والعلوم. ربما. للمجرمين؟ لهذه الأحزاب التي تجوب المدينة ليل نهار للاستيلاء على أكبر حيّز مكاني منها وقتل الناس؟

ضرب جبهته بيده. كيف نسي أمر الرسالة التي انتزعها من يد الرجل الميت في الشارع؟ الذاكرة! نعم إنها الذاكرة العاطلة عن العمل. شتمها. جلس أمام جثة ماموث كتب على لوحة برونزية: تم العثور عليه في سيبيريا في العام 1915 إبان الحرب العالمية الأولى. وقد تم تهريبه إلى النمسا أولاً بواسطة جنود أحياء تم قتلهم لاحقاً. بيع الماموث في مزادات عدّة حتى استقر أخيراً في رحلته النهائية في هذا المتحف.

تخصّ وجه الماموث الذي ظلّ دفيئة الثلج والأزمة حتى نبش سرّه جنود مسيؤون للطبيعة متمردون على القيصر، متوترون لنفاد سجاثرهم وذخيرتهم وبقائهم بعيداً عن زوجاتهم دهوراً كاملاً. بدت له عينا الماموث حزينتين.

أخرج الرسالة من جيبه وهو يسرع قبل أن يصرخ عليه الرفاق من بعيد وقد أدار ظهره للكائن الحيّ الميت الضخم الجثة. فتح الرسالة التي كانت متسخة ببقع من الدم والطين. شرع يقرأ بتوتّر. اندهش بأن الرسالة مكتوبة بخط جميل. أسماها في البداية رسالة الجثة. ثم لما رأى جمال الخط أسماها رسالة الرجل المجهول صاحب الخط الجميل. ثم شرع يقرأ:

إلى زوجتي الغالية بسمة....

بدأت منذ ليلة أمس أشعر بصداع رهيب، خشيت معه أن أفقد ذاكرتي كما يقولون بسرعة رهيبة. لو فقدتها ونسيتك سيجدون معي حتماً هذه الرسالة. كيف لي مجرد أن أفكر في أنني يمكن أن أنساك. أنسى ملامحك. أنسى عينيك؟ زوجتي وحببتي الغالية. أحببتك وأحبك وسأبقى أحبك حتى وإن خانتني الذاكرة. كتبت هذه الرسالة في عجلة من أمري، وأنا خائف من أن يصلني سيل النسيان قبل أن أنتهي منها. وصلت إلى البيت ولم أعر عليك. ولا على الأولاد. حتى الخادمة لم تكن موجودة في البيت. كان البيت مهجوراً. يعبق برائحة الفقد. اتصلت بك. لم تردّي على اتصالاتي. ولا على رسائلي. بدا لي بأن رقم هاتفك مقطوع. لذلك قرّرت أن أكتب لك هذه الرسالة. خرجت أبحث عنك الآن. دخلت إلى محل بيع السجاد في آخر الشارع. تعرفينه. أخذت ورقة وقلماً وبدأت أكتب لك. قال لي إبراهيم صاحب المحل: خذ وقتك يا صديقي. أشعر بوجودك. لأن وجودك في الوجود كان يدعم وجودي. بل لولاه لما كنت موجوداً. أنت وجودي بالكامل. لو أصبت بهذا الوباء. أعني فقدان الذاكرة، فهذا يعني بأنني سأكون وحيداً جداً في هذا العالم. بل سأكون وحدي في هذا العالم. ولا أظن في تلك اللحظة بأن العالم سيحتلمني. سأموت من دون وجودك معي. تذكرني لو عثروا على هذه الرسالة معي، حياً أو ميتاً، أنني أحبك. أحبك للأبد. وأحب أولادنا. أخبرهم بذلك. أخبرني خالد وهدى وناصر بأنني أحبهم. وسأظل أشتاق إليكم جميعاً حتى إن متّ. حتى إن فقدت الذاكرة. حتى إن أصبت بالجنون. خلاياي في أعماقي لا تنسى أنها تحبكم. لا يمكن أن تنسى. مستحيل أن تفقد ذاكرتها. الوباء يصيب ذاكرتي لكنه لن يخترق قلبي وروحي وخلايا جسدي.

أحبك.

أحبكم.

حبيبك بدر.

عاد إلى رفاقه وقد تغيّرت طريقة تنفّسه. بخطوات كابية ونائية عن أقدامه. لماذا لم يذكر اسم زوجته بالكامل؟ لماذا لم يكتب رقم هاتفها؟ عنوانها؟ نظروا إليه: أين كنت؟

– في جولة تقديية. أضاف: أين سنذهب؟ محاولاً تشتيت نظراتهم المسدّدة نحو وجهه.

– لا بد أن نعثر على جهاز تلفزيون أو كمبيوتر. قالت سارة.

وصلوا إلى غرفة فسيحة بدت كما لو كانت مكتباً لمدير المتحف. دخل الجميع. توجّهت سارة نحو المكتب وأدارت جهاز الكمبيوتر.

– ماذا تفعلين؟

سألها مبارك!

- لا بد أن نعرف الأخبار على الأقل قبل أن نخرج من هنا.

واقفها سعيد وميشيل بينما كان القلق باديا على وجه مبارك الذي بدأ يمسّد شاربه بإبهام يده اليمنى والسبابة. قال سعيد في نفسه: طبيعة الشرطي. نظرت إلى الراوتر في الزاوية. كان يشتغل. فتحت على صفحة الأخبار. كلها تقريبا تتحدث عن الوباء. الوباء الذي اجتاح البلاد. انهيار شبه شامل للذاكرة. ثم فجأة طالعها هذا الخبر الذي تناقلته كل وكالات الأخبار فقرأت بصوت عالٍ:

ذكرت مصادر إعلامية عن دوائر مطلعة أنّ عالما مصريًا لم يتجاوز الـ40 من العمر يدعى مصطفى حلمي يعمل بإحدى المختبرات الأمريكية توصل إلى التحكم بالطقس في أي بلد بالعالم من خلال ما يسمى بغاز «الكيمتريل».

تذكر مبارك ذلك العطر الذي اشتمه ليلة البارحة في الزقاق المعتم حيث كانت الجثة وفي يدها الرسالة. كما أنه اشتم هذا العطر أيضاً في قاعة الديناصور. أو هكذا خُيل له. أراد أن يسأل سعيد عن الرسالة لكن سارة واصلت القراءة:

وأفادت بأن العالم المصري توصل إلى تطوير الظواهر الطبيعية كالبرق والرعد والزلازل والأمطار والأعاصير والفيضانات والجفاف في أي بقعة من العالم. ووفقاً للمعلومات، فإن التطوير الذي أحدثه العالم المصري قد وفر مجهوداً لعشر سنوات من الأبحاث لعلماء غربيين يعملون في هذا المجال.

ويُعدُّ غاز الكيمتريل أحدث أسلحة الدمار الشامل ويستخدم لاستحداث الظواهر الطبيعية وإحداث الأضرار البشعة بالدول والأماكن «غير المرغوب فيها».

وهذا السلاح عبارة عن مركبات كيميائية يمكن نشرها على ارتفاعات جوية محدّدة لاستحداث ظواهر جوية معيّنة. ويؤدّي إطلاق إحدى الطائرات غاز «الكيمتريل» في الهواء إلى تغييرات في مسارات الرياح المعتادة وتغييرات أخرى غير مألوفة في الطقس تنتج عنها صواعق وبرق ورعد وجفاف دون سقوط أي أمطار.

ورغم النداءيات الكارثية هذه، إلا أن الكيمتريل يمكن استخدامه في المجالات السلمية النفعية حيث له دور فعّال في التقليل من ظاهرة الاحتباس الحراري. كما أنه مفيد جداً في ظاهرة «الاستمطار» في المناطق القاحلة.

إلا أن واشنطن استخدمت تلك التقنية في الأغراض الاستعمارية ليصبح الكيمتريل أحدث أسلحة الدمار الشامل، وفقاً لموقع «محيط».

وذكر موقع «محيط» أن أسراب الجراد التي هاجمت مصر وشمال إفريقيا وشمال البحر الأحمر ومنطقة جنوب شرق آسيا فوق السعودية والأردن في أواخر عام 2004 كان السبب الرئيس فيها هو

غاز الكيمترل وذلك بعد رش تلك المنطقة بزعم خفض الاحتباس الحراري.

ووفقاً للوثائق السرية التي اطلع عليها العالم المصري، فإن الأمريكيين أطلقوا الكيمتريل سرّاً لأول مرة فوق أجواء كوريا الشمالية، ما أدى إلى جفاف وإتلاف محاصيل الأرز وتسبب في موت الملايين. كما استخدم هذا السلاح أيضاً في منطقة تورا بورا بأفغانستان لتجفيفها ودفع السكان للهجرة.

واكتشف العالم أن هذا السلاح أطلقته «ناسا» عام 1991 فوق العراق والسعودية قبل حرب الخليج الثانية، بعد تحميله بالسلالة النشطة من الميكروب المهندس وراثياً لحساب وزارة الدفاع الأمريكية للاستخدام في الحرب البيولوجية، وقد طعم الجنود الأمريكيون باللقاح الواقي من الميكروب، بيد أن 47% منهم عادوا مصابين به، وزعمت وزارتا الدفاع والصحة الأمريكيتين أنه مرض غير معروف أطلق عليه «مرض الخليج». واكتشف الحقيقة الطبيب الأمريكي جارت نيكولسون حيث أشار إلى الأمراض التي يسببها غاز الكيمتريل في الأماكن التي تم إطلاقه فيها ومنها نزيف الأنف وأوبئة الأنفلونزا وفقدان الذاكرة المؤقت وحتى «الإيدز».

كما اكتشف العالم المصري أن إعصار «جونو» الذي ضرب سلطنة عمان وأحدث خراباً وتدميراً كبيراً ثم جنح إلى إيران، كان ناجماً عن استخدام «الكيمتريل»، وأنه صناعة أمريكية وإسرائيلية. وكانت إيران هي المقصودة بهذا الدمار، لكن بسبب خطأ بعض الحسابات تحول الإعصار إلى سلطنة عمان، ولما ذهب إلى إيران كانت قوته التدميرية قد استنفدت.

وقد اكتشف الكيمتريل من قبل الإتحاد السوفيتي السابق، حيث تفوق مبكراً على أمريكا في مجال الهندسة المناخية عندما حصل على نتائج دراسات قديمة في أوائل القرن الماضي للباحث الصربي نيقولا تيسلا. وانتقل علم الهندسة المناخية من الإتحاد السوفيتي إلى الصين.

وعرفت أمريكا بـ «الكيمتريل» مع انهيار الإتحاد السوفيتي وهجرة الباحث الصربي نيقولا تيسلا والعلماء الروس إلى أمريكا وأوروبا وإسرائيل. وتطوّرت أبحاث الكيمتريل على يد واشنطن وتوصّلت إلى قواعد علمية وتطبيقات تؤدّي إلى الدمار الشامل.

وقد نجحت واشنطن في انتزاع موافقة الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية عام 2000 على استخدامها تقنية الكيمتريل في تخفيض الاحتباس الحراري على مستوى الكرة الأرضية، رغم مخاوف كثير من العلماء من تأثيراتها الجانبية على صحة الإنسان.

وضعت ساره يدها على فمها.

يا إلهي! إنه الكيمتريل!

ماذا يعني ذلك؟ قال مبارك وهو يضيّق عينيه.

لابد أن أمريكا قد أطلقتته فوق منطقتنا. ردّت سارة وهي تنهض من كرسيها.

ولماذا تريد أمريكا تدميرنا؟ سأل مبارك بعصبية.

- لا تريد. تريد فقط أن تدمّر ذاكرتنا! قالت سارة.

نتحوّل إلى مسوخ! قال سعيد.

لكن... قالت سارة.

- لكن ماذا؟ قال ميشيل.

تقول الأخبار بأنه انتشر في كلّ قارات العالم. أصبح وباء عالميًا! وأمسكت برأسها كما لو كانت تعاني من صداع مزمن بينما بحّ صوتها بطريقة مفاجئة ثم احتبس.

## الفصل التاسع

### كمين

لا أحد عرف ما الذي حدث بعد ذلك، لكن ما ظلّوا يتذكّرونه في ذلك اليوم الذي خرجوا فيه من مبنى المتحف الوطني، سعيد ومبارك وميشيل وسارة، هو أنهم قد تعرّضوا لكمين من قبل مجموعة ممّن أطلقوا على أنفسهم تسمية حزب المحافظين، بمجرد أن خرجوا من هناك كما لو كانوا تحت الرصد طوال الليل. وبما أن شخصياتهم جميعها كانت مزوّرة ما عدا مبارك، فقد كان بشخصية ربع مزوّرة، فقد كانوا على موعد مع الشيطان في هيئة أفراد حزب.

خرجت عليهم مجموعة مسلّحة من بين حفر على جانبي الطريق المشجّرة والتي يبست بعض النباتات تحتها، شاهرة أسلحتها في وجوههم وسط خشخشة الأوراق اليابسة تحت أقدامهم. صرخت سارة والتفت خلف ظهر سعيد الذي رأى وجهه في المرآة مرتين، بينما تجمّد هو في مكانه كما لو كان رجل تلج.

أمسكوا بهم واقتادوهم إلى وكر قريب مع ضرب بأعقاب البنادق وسارة تصرخ. كانوا في ذهول واعتقدوا لحظتها بأنهم يقتربون من النهاية. مثل نهاية الجثث التي رأوها في شوارع المدينة وأزقتها الليلية الفاتئة. تذكر سعيد الرسالة. نظر إلى مبارك نظرة لم يستطع فك شيفرتها. وضع يده على جيبه. هل فكّر في أنه قد يقتل وحده وأن مبارك يمكن أن ينجو؟ هل أراد من مبارك أن يأخذ الرسالة؟ ما الذي جعل لهذه الرسالة كل هذه الأهمية بالنسبة له؟

أمروهم بالارتقاء أرضاً أمام باب عمارة تم احتلالها بالكامل من رجال الحزب.

– أرجوكم. نحن فاقدو الذاكرة ولا نعرف من نحن؟

– هل تعرفون أن تأكلوا تبننا؟

– أرجوك. لا نعرف ما ذنبنا؟

– هل تكرمنا بسكوتك وإلا أفرغت هذا الرشاش في رأسك!

صرخ رجل الميليشيا. بينما رمت سارة نفسها بينهما وهي ترجوه ألا يقتل سعيداً.

احتاج سعيد إلى بعض الوقت لكي يستردّ أنفاسه ويدرك ما كان يجري حوله. فرك يديه لأوّل مرة من شدّة البرد. لمح وجهاً يشبه قطعة أثرية له لونها وقد أخرجها للتوّ منقبون من تحت التراب. ضيق عينيه لكي يتحقّق من هذا الوجه. كان وجه سارة. شعر بقلبه يتمزّق. يكاد يسمع صوت تمرّقه. لم يكن الوجه نفسه الذي رآه في الصباح الباكر.

أرسلت الشمس أشعتها مساندة لهم.

تركوهم طوال ساعات النهار تأكلهم الوسوس والأفكار السامة. في كل ساعة تقريباً كانوا يحضرون مجموعة من الأشخاص يرmonها عليهم حتى تكسوا في هذا المكان الذي لا يبدو بأنه يرمز إلى شيء محدد. إنه مكان عشوائي. قدر سعيد. بينما بدأ ميشيل يأكل أظفاره من القلق.

شاهد سعيد طائراً يحوم حول المكان ثم يحط فوق عمود النور. ودّ لو رأى عيني الطائر من هذا البعد. تمنى لو كان طائراً لسماء فوق هذه الأرض الملعونة، لارتفع فوق هذه المدينة. لكنه كان أيضاً سيرى الفواجع من سمائه التي يخلق فيها. تخيل أن الطائر ينظر إليهم مباشرة. وإلا لماذا اختار بالذات هذا العمود لكي يقف فوقه؟

كلما حاول مبارك أن يتحدّث إلى سعيد اقترب منهم حارس يحمل رشاشاً جاهزاً للإطلاق. فكّر مبارك بالرسالة التي بحوزة سعيد. ماذا لو فتشوه؟ هل تخلص منها في المتحف؟ ما محتواها؟ بماذا وشوش سعيد للجنة؟ ظل يفكر بهذه الوسوس حتى شعر بنفسه يغفو.

حلم بأنه يرسم على جدار طويل وعالٍ جداً في المدينة. حتى خيّل له بأن الطيور لا تستطيع أن تمرّ من فوقه. قدر سمك الجدار بكيلومتر تقريباً. وطوله غير معروف. قال له رجل يرسم إلى جانبه: هذا الجدار على طول الكرة الأرضية!

سأل الرجل الذي كان يربط شعره الطويل بشريط أحمر: هل عرض الجدار كيلو متر؟

كيف عرفت؟

بالحدس!

هذا ما سمعته أنا أيضاً.

تساءل كيف بنوه؟ هل الجدار بطول العالم؟ سمع تكسيرا من الجهة اليمنى. رأى مجموعة من الرجال والنساء ترتدي كمادات، وفي أيدهم الفؤوس والمطارق وهم يحاولون هدم الجدار أو إحداث ثغرة فيه! لم يساوره الشك في أنهم مجانيين.

واصل الرسم. كان يرسم ذنباً. ذنباً وحيداً. تراجع إلى الخلف. رآه على نحو مختلف. رأى الذنب مكشراً عن أنيابه على نحو هستيريّ وعدائيّ. كان ما يزال ممسكاً بالفرشاة. ويلوح الألوان. اقترب ثانية من الذنب. ارتسمت على وجهه علامات الدهشة. كلما اقترب من الذنب كلما زالت التكشيرة واختفت أنيابه. وعاد الذنب أليفاً كأنه ينظر إلى أبيه أو أمّه! عينا الذنب وديعتان فيهما عمق جعل رأسه تدور وعيناه تعتمان ثم تضيئان. تتشوشان. في العمق رأى حياة. رأى طفلاً. وأرجوحة. ووروداً. ورأى امرأة تنتظر إلى الطفل بوداعة ورجاء. فجأة خفقت أجنحة طائر ملون فوق رأس

الطفل، فرمّشَ مبارك. كان صوت رفيف الأجنحة مثل صوت المطر. تراجع وقد سقطت من يديه الفرشاة ولوح الألوان. وشهق من الحلم عائداً إلى الواقع.

□  
لكزه سعيد: بسم الله الرحمن الرحيم. ما بك يا صديقي؟

□  
- بسم الله الرحمن الرحيم. حلم. أعني كان كابوساً. هل تدري. لست متأكداً حتى من أنه كابوس!

- إنها الذاكرة اللعينة. قال سعيد. أضاف وهو يتلّفَت وكان ما سيقوله له علاقة بأن الدولة والحرب والفلتان والموت:

- كنت أعتقد أن النسيان سيعالج كلّ شيء. لكنه يخذلنا. حتى النسيان يخذلنا!

قبل غروب الشمس بقليل كانوا قد ناهزوا المائة معتقل. على عيونهم الوهن ونظراتهم زائغة كأنها ورقات بصل.

جاء رئيس منهم، بلا رتبة، لكن الجميع يمشون خلفه:

- حسناً من يدّعي منكم بأنه بلا ذاكرة أو هوية؟

رفع الجميع تقريباً أيديهم. ابتسم الضابط ابتسامة نصر ورضا عن النتيجة:

- حسناً. إذن ستكونون جميعاً ابتداءً من هذه الليلة من أتباع حزب المحافظين. قرّر الحزب، مشكوراً، أن يمنحك ذاكرة. سيوزع عليكم الرفاق هويّات بأسماء مختارة أصيلة. ومع كل هويّة سيتم توزيع المهام. ستكون هذه هي أسماؤكم الجديدة التي ستُعرفون بها منذ أن تتسلّمونها من الحزب. الحزب سيعيد جدولتكم في هذه الحياة الجديدة. الرجال حتى سنّ الخمسين يتبعون المقاتلين. وكبار السنّ سيتولّون مهاماً لوجستية. أما النساء فلهم مهمّات خاصة. سوف تلتقي بهن الأخت سليمة لشرح طبيعة أدوارهن.

تقدّمت سليمة بوجهها المجعّد معلنة عن نفسها، ويدها وراء ظهرها في وقفة استعداد لكلّ مهمة. ضيّقت سليمة ما بين عينيها. ورفعت أحد حاجبيها دلالة على إفراط في الحزم.

انتهى المسؤول برتبة ضابط رفيع، متسلسل من أزمنة سحيقة، من خطابه، والتفّ مثل بصلة إلى الخلف مغادراً وسط دھول المعتقلين الذين لم يستوعبوا بعد أيّ شرّ قد حصل لهم!

## الفصل العاشر

### الوطن فخر مُحكم

بعد مغادرة القائد بقليل قام رجل له عينان ذابلتان من كثرة الوهم معترضاً على أمر ضمّه إلى مقاتلي حزب المحافظين. فتمّ توجيه الرشاش نحو جسده على الفور، فتمزّق. حتى أن أجزاء من دمه ولحمه قد استقرّت على وجوه المعتقلين القريبين منه. وبحركة عفوية قام بعض الرجال فزعين لكي يحملوا جثة زميلهم فتم رشهم على الفور لكي يكونوا عبرة للآخرين. لا أحد يقف هنا إلا بأمر. لا أحد يُظهر مروءة زائدة عن الحاجة. مروءة لا يريدّها الحزب. لا مروءة إلا مروءة الحزب.

لا يقل عن خمسة عشرة جثة من أصل مائة إنسان أصبحت الآن ملقاة على قارعة الطريق أمام البناية التي اتخذتها الميليشيا مقراً لها. هبّت ريح خفيفة أطارت بعض أوراق الشجر المتساقط وصواب سارة ومبارك وسعيد وميشيل. وسط الهرج والمرج فتّشت سارة المنهارة عن رفاقها الثلاثة وهي تبكي. كان سعيد متكوراً في مكان بعيد وقد أغمض عينيه وسال خياله من رأسه. بينما كان مبارك، اليقظ بطبيعته، مضطرباً وصاراً على قبضة يده من الغضب. ميشيل كان ملقى على وجهه. وقعت عينا سارة على جسد ميشيل. وضعت سارة يدها على وجهها من الرعب. هل مات ميشيل بهذه البساطة؟ يا الله! شهقت.

قال مقاتل يحتكّ أنفه بالأفق:

– وسط هذه الفوضى لا بد من أن يحكم أحد! تفهّموا هذا الأمر. إذن سنحكم نحن. هل تفهمون؟ إن ما يحدث ليس بالحكم. وإلا فالفوضى بانتظاركم. هل تريدون أن يحكمكم حزب الأحرار الإرهابي؟ احمداً الله أننا منحناكم هويّات بدلاً من التسكّع في طرقات هذه المدينة كالحیوانات بلا هدى، ولا عمل، ولا مهمّة. ستكونون من أتباع حزب المحافظين. أيّ شرف هذا؟ وأيّ جهاد من أجل مبادئ الحزب؟ حتى قيام الساعة!

صرخت امرأة عجوز خلف الصفوف باكياً:

– ولكن شخصياتنا جميعها مزورة!

علّق رجل مسنّ آخر:

– نحن حتى لا نعرف من سنحارب؟ ومن عدونا؟ أفرض أنني قتلت أخي أو أختي أو حتى أمي أو أبي!

– كله يهون من أجل مبادئ الحزب.

ردّ الرجل الذي علقت في روحه أنفة رائحتها تزكم الأنوف، مستمّدة من الحزب، ومضى بعيداً عنهم وكأنه قد قال حكماً شرعياً لا يأتيه الباطل.

شعروا بأن لا فائدة. فاح الموت قريبهم. قالت امرأة أخرى: نحن نؤذن في مالطا. هؤلاء الوحوش لا يفهمون العربية!

لا يد أن هناك من استفز الطيور، والحيوانات والناس. وحش ما. وحش الطمع. وحش الطغيان. صفت الطيور بأجنحتها مولية صوب البحر. وسُمت أصوات حيوانات من بعيد.

قال مقاتل من حزب المحافظين الذي باتوا ينتمون إليه حتف أنوفهم، اقترب منهم مطمئناً على سير الأمور: هذا الوباء دليل أن نهاية العالم قريبة جداً.

قالت المرأة بصوت خفيض: نريد أن تنتهي الدنيا قبل هبوط عيسى عليه السلام. نريد أن نرجع إلى الجنة في أقرب وقت ممكن. لماذا هذه العطلة؟

– أي خطأ فادح ارتكبنا حتى عوقبنا بهذا الوباء؟ علّق الرجل المسنّ.

قالت العجوز: ربما ما حصل لنا كفارة عن خطايانا!

– أنظروا إلى الطيور طائرة وهانئة. لم تصب بأي مرض. لأنها لم تفعل شيئاً يغضب الله.

– كم أغضبنا الله. الكون مختلق بنا وبأفعالنا وجرائمنا! تقول لماذا عوقبنا بهذا الوباء! وهل بقيت خطيئة لم نرتكبها؟

حكمة كبار السنّ. قال سعيد في سرّه. معهم حق. أضاف. لا بد أن الظلم والطغيان قد طفحا في هذا العالم.

سمعوا صوت هليكوبتر في الأجواء. وفي الناحية الأخرى عويلاً صاعداً من جريح.

قالت العجوز: نسمع أصواتاً لم يسمعها أجدادنا. صوت العويل والهليكوبتر معاً. هذا المزيج لم يسمعه أسلافنا من قبل.

قال الرجل المسنّ:

– منذ أن ولدنا ليس هناك سوى الخراب. القرآن الكريم يحثّ الإنسان على عدم عمل الخراب والتخريب على هذه الأرض. لكن الإنسان مصرّ على التخريب والقتل وسفك الدماء!

ظلّ البعض منهم متوارياً عن الخوف لنلا يراه. الجميع في حالة سكون يشبه الموت. شعر سعيد بأن الوطن فح محكم وقد انطبق عليهم. من يجرؤ على النجاة منه. لا بد له من حاكم. لا بد له من ميليشيا. لا بد له من طغاة. أردت ذلك أم لم ترد. امتلكت هوية أم لم تمتلك. كنت بذاكرة كالحديد أم فقدت ذاكرتك. الوطن وطن في النهاية. حتى لو كان مقصلة. مدّ له رأسك ومُت من أجله.

أسند رأسه على الرصيف شاعراً بالبرد. ومصغياً إلى الصمت الذي بدأت تقطعه أصوات طيور سابحة في ملكوت الله. تخيل بأنها تنظر إلى البشر وماذا يفعلون بأنفسهم. تذكر آية: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.

تمخّط رجل من شدّة البرد. فرك يديه. بدا وجهه مثل ليمونة معصورة. شعروا بأن البلاء قد حلّ بهم.

قضوا الليلة تحت وابل من الكوايبس. بينما الجثث كانت ممدّدة بالقرب منهم. تركوها بينهم تذكيراً بالموت. نشجت سارة. اقتربت من سعيد:

– هل مات ميشيل حقاً؟

– لا أعلم. لا أستطيع الاقتراب من جثته.

– جثته؟ هل أصبح جثة؟ شهقت سارة وهي تغطّي فمها براحة يدها.

– اسمع. يجب أن نهرب.

قال مبارك هامساً:

– لا يمكن الانتظار. يجب أن نفلت من هذه العصابة. وإلاّ لتحولنا إلى قاطعي طريق وقتلة. سنرى إن جاءت فرصة. سننتهزها.

قالت سارة وهي تعصر قدمها: رأيت كابوساً.

– ليس ما رأيتك كابوساً. قال سعيد.

– ما نعيشه هو الحقيقة! قال مبارك.

نظروا إلى ميشيل. بالأحرى إلى جثته. قال سعيد كأنه يحدث نفسه:

في تلك الليلة حينما جلست قرب جثة ذلك الرجل. اسمه بدر. عرفت اسمه من الرسالة التي كتبها إلى زوجته، بسمة. قبل أن يصاب بفقدان الذاكرة. نظرت إلى جانب وجهه. خيل إليّ بأنه مات باكياً. وخيل لي بشدّة أيضاً بأن خيطاً من الدموع كان يجري على صفحة خدّه وهو ملقى على الإسفلت.

خيطا كان يلتقي مع خيط دم قد سال من قلبه. خيطان التقياء: الدمع والدم. لم يكن يهياً لي. كان حقيقة. حينذاك قلت له هامساً: لا تخف يا أخي من الموت. سنلحق بك جميعاً. لن تكون وحيداً. ما أجمل أن يموت الإنسان باكياً وتختلط دموعه بدمه! لكنني عندما قرأت رسالته وأنا في المتحف، فرعت. كان ذلك الرجل ذو الخط الجميل، يحب امرأته. بل يعشقها. مات على حبها. لكنني لم أكن أعلم بأن القدر قد حملني عبء إيصال هذه الرسالة إلى زوجته بسمة. تصوّروا بأن اسمها: بسمة! أيّ تعاسة حملني القدر إياها؟!!

خشي أن يُصاب بفقدان الذاكرة دون أن يقول لها للمرّة الأخيرة: أحبّك! قال مبارك.

لكن هذا المسكين، الراقد هناك بلا حراك، ميشيل، أو أيّا يكن اسمه الحقيقي، في الصباح سيُدفنه النسيان! يا للرعب!

– جعلونا جنوداً في آلتهم. في النهاية من يهتم كيف مات الجندي!

لم يكن في هذه الليلة حتى يصدّق المرء بأنه ليس في جهنم سوى القمر الذي يتوارى خجلاً بين الغيوم. هبّت ريح خفيفة أسعت الوجوه. حك القمر نوره بوجه سارة فالتمع كأنه فجر الصباح. تناهت إلى مسامعهم أصوات مختلفة. نباح كلاب، صفارات إنذار. ضجيج من أصوات آدمية. وحفيف أشجار.

نامت.

ناموا.

حمد الجميع.

بلا انتماء!

## الفصل الحادي عشر

تكدّست الجثث مثل علب فارغة

في الصباح تمّ توزيعهم كأتباع حظيرة. مبارك وسعيد التحقوا بكتيبة مسلّحة. بينما ذهبت سارة مع النساء تقودهم سليمة التي تشبه عربية مصفّحة. ميشيل التحق بالرفيق الأعلى.

تأكد سعيد من موته. تجرّأ بأن طلب من الرئيس أن يتمّ دفن رفيقهم. فرفض. ظلّت جثة ميشيل المسكين في الهواء الطلق.

– سننتقل الآن إلى مكان آخر. قيادة الفرقة متحرّكة. ليس لدينا وقت للجثث.

– عدم دفن الجثث حكمة! علق أحدهم.

– لكن إكرام الميّت دفنه!

لم يسمعه أحد. وكأن هذه العبارة لا تنطبق على القتيل. فقط على الميّت في بيته.

نظر سعيد إلى سارة النظرة الأخيرة. ثم اختفت من مجال ناظريه في المجهول الذي شنقه الأفق للتوّ. جاءت شاحنة يصرّ محرّكها كما لو كانت تهوي من جبل وصعدوا فيها. تذكر كل لحظة مرّت مع ميشيل منذ أن رآه أوّل مرّة في محلّ بيع الملابس. مسكين ميشيل. قال في سرّه. مات ولم يعرف أحد من هو؟ ما اسمه الحقيقي؟ هل كان متروّجاً؟ هل لديه أبناء؟ من يعرف من؟ أصبح الناس يموتون مجهولي الهوية. يا الله.

اختفوا هم أيضاً في المدينة المخربّة. وتفرّقت الشاحنات في طرقات المدينة مطلقة هديرأ فلق الأفق إلى نصفين.

كنا أمس أربعة وها نحن بقينا أنا وأنت فقط!

قال مبارك بقلب مدمى وفي داخله خوف من أن يأخذوا منه سعيداً ويبقى وحيداً مع كلّ هذه الأوبئة.

كيف سنصل إلى عنوان بيتك؟ سأله سعيد.

لا أدري.

حسب بطاقة هويّة الحزب الممنوحة لهم أصبح اسم سعيد الجديد فاضل نمر. أما مبارك فقد أصبح اسمه هاني جعفر. استغربوا رنين أسمائهم في البداية. وقال مبارك: كيف ركبوا هذه الأسماء؟ أما

سارة فأصبح اسمها: نوال سالم.

على الطريق شاهدوا لافتاتٍ وصوراً لمفقودين، غرزها ذووهم على الجدران مع كتابة أرقام هواتفهم. ربما عاد فاقدوا الذاكرة إليهم يوماً ما. خمن مبارك بأن البعض سيرى صورته معلقة مثل مطلوب، وسيعرف على الأقل من هو ومن أهله. فاستحسن الأمر. بقيت عيناه معلقتين في الجدران. وسأل نفسه: ماذا لو كانت صورتي معلقة على أحد هذه الجدران المهملة والمطلية بالنسيان؟

هل هذه مدينة أم أطلال؟ كيف تحوّلت المدينة إلى خرائب أشباح في بضعة أيام؟ تساءل مبارك.

مرّوا على مقبرة. شعروا بالفتنة. افتتنوا بها. تساءلوا: هل لنا أهل فيها؟ كان سور المقبرة مهدّماً. لذا انكشفت شواهد القبور. عانقت الأفق والفضاء المفتوح. من له مصلحة بتهديم أسوار مقبرة؟ حتى المقابر لم تسلم من التخريب والعبث. يا للموت! هجس سعيد في نفسه. هذا هو الموت مائل أمام أعيننا. فوّه شاهدة تدلّ عليه بوقار واحترام. حدث ذلك الشيء الجميل قبل هذا الوباء. نعمل طوال حياتنا لكي نصبح موتى. أليس كذلك؟ وماذا غير ذلك. لا شيء يستحق الذكر أو التذكّر في هذه الحياة.

توقّفت الشاحنة فتوقّف تدفق تفكيره وأفكاره، وصدر عن الشاحنة حسيس مزعج ورائحة خانقة كأنها كائن قدر.

أمرهم المسلّحون بالنزول من الشاحنة.

– هيا يا أوغاد... هيا!

تتناقض هذه الصفة، أوغاد، مع ما قالوه لهم في البداية من أنهم سيكونون من أتباع حزب المحافظين المخلصين والمقرّبين. فكّر سعيد بينه وبين نفسه وهو يقفز من الشاحنة كأنه ابن عشرين.

صفّوهم في الساحة ثم بدأ أحد الضباط يشرح لهم مهمّاتهم. قال لهم بأنهم سيطروا على هذه الأحياء بكاملها. ودورهم الآن أن يحافظوا على هذا المنجز العظيم حتى انتهاء الحرب واستيلاء الحزب على الدولة بأكملها. أضاف: حتى لو متنا جميعاً في سبيل الواجب والهدف الأسمى! ما أهميّة حياتنا بالنسبة لحياة الحزب؟!!

لم يفكّر سعيد بنهاية العالم أو بالدولة ولا الحرب ولا حتى باسمه الجديد: فاضل نمر. بل بميشيل وسارة. أما مبارك فكان يفكّر بعائلته التي علقت في ذهنه بسبب مكالمته مع عمّه والد زوجته سعاد. القلب يتعلّق بأيّ وهم. لم يخطر بباله أبداً بأنه سيتعلّق بزوجة وأطفال لا يتذكّر ملامح وجوههم.

تمّ توزيعهم كحراسات على بعض الأبنية. لم يتعرّف سعيد ولا مبارك على هذه الأبنية. اتفقا على أن يبقيا لصق بعضهما البعض. في كلّ مرّة تأتي شاحنة محمّلة بالأوغاد. هكذا يصفهم عناصر الحزب.

ثم تالياً يتم تحويلهم من أوغاد بلا ذاكرة، إلى مقاتلين في الحزب من أتباع الرئيس الذين لا يعرفون اسمه حتى الآن.

دخّن مبارك سيجارة ثم تفل على الأرض وبدأ ساهماً.

– بمن تفكر؟ سأله مبارك.

– بأمي. بأبي.

– هل تعرفهما؟

– أن لا أتذكرهما لا يعني أن ليس لديّ أب وأمّ. كم تتوجّع أمي من أجلي الآن. كم يتألّم هو من فقدي. في قلبي شعور رهيب بالفقد. أحاول استرجاع صورتها فلا أستطيع. أشعر في صميم قلبي باشتياقي لهما رغم أنني لا أستطيع أن أستحضر وجهيهما.

– صدقت. فالإنسان منا ربما لا يتذكّر بأنه متزوج أو عنده أطفال. لكنه حتماً متأكد من أن لديه أباً وأماً.

– هو كذلك.

– اسمع. رأيتني في زيّ شرطي وها أنت تراني الآن في زيّ مسلّح ميليشوي. في أيّ البدلتين أبدو شريراً أكثر! قال مبارك الذي شعر بأنه في موقف هستيري جنوني لا يُصدق.

ضحك سعيد.

– ما بك يا رجل؟ أنت تحتاج إلى نظارة شمسية لكي تبدو شريراً!

– من أين لي بها؟

– أسمع. البدلات تفحّ الخوف لمن يراها كما لو كانت أفعى. فأنت أول ما تشعر به حين ترى الأفعى هو الخوف.

قال سعيد ثم رمى عقب السيجارة من يده مع آخر نفس وسحقها بحذائه:

– سجائر صينية كأنها خراء يابس ومشوي ومحمص.

– اللعنة يا رجل! من أين أتوا بها؟

- لا أتصوّر كيف يطيع البعض هنا الأوامر كأنه بلا عقل!

- الإنسان يسلم عقله لأيّ خراء متحرّك.

- الغبي يسرع في تلقّف الأيديولوجيا ليريح رأسه.

خطر لمبارك أن يسأل سعيد الذي قدّر في نفسه بأنه يكبره على الأقلّ بعشر سنوات، عن الرشاش الذي يحمله. هل يتخيّل بأنه سيستعمله يوماً ما. ناهيك عن أن يقتل به إنساناً. لكنه تراجع حين رأى سعيد يفكّر في سابع تيه.

- هل تتذكّر المسلحين الذي أمسكوا بنا أوّل مرّة؟

- تعني تنظيم الأحرار؟ تساعل سعيد.

- نعم. كنت أفكّر أيّهما أكثر دموية هم أم... تلتفتّ يمينا وشمالاً ثم أضاف بصوت أكثر خفوتاً:  
هؤلاء؟

- كلّهم صانعو آثام. لا تتشغل بهم. كلهم تفوح منهم رائحة الموت.

قال سعيد وأضاف وهو ينفخ دخان سيجارته في الهواء:

- بالله عليك ما الذي نحرسه في هذه البنايات الفارغة؟

- لا شيء سوى الوهم. نحن نحرس الوهم. كأننا نحرس وطناً فارغاً.

مرّت بضعة أيام وهم في هذه الحالة المزرية من حراسة أبنية شبه فارغة ينعق فيها اليوم والخراب وهواء الوطنية الحارق. ترهّلت أجسادهم من قلة النوم والجوع إذ كانت تصلهم وجبتان خفيفتان فقط، واحدة في الصباح والثانية قبل حلول الظلام. الأولى مكوّنة من فاصوليا بالبيض. والثانية مكوّنة من العدس والكوسة. الخبزة الصغيرة اليابسة لا تكفي الرجل منهم. تناقصت أوزانهم مع مرور الأيام بينما طالت لحاهم وتشعثت شعر رؤوسهم. بدوا كما لو كانوا قادمين من كهوف سحيقة. البعض منهم اكتسب وجهه علامات غضب مزمن، أو حزن يتيّم.

في اليوم السابع سمعوا بأن شخصاً يطلق على نفسه لقب عبدالرحمن الداخل قد أعلن الثورة. ادعى بأنه من سلالة عبدالرحمن الداخل وأنه مثله، أخواله من المغرب. ما الذي يريده عبدالرحمن الداخل؟ تساءلوا. تهامسوا، حسبما وصلت إليهم الأخبار، بأنه يريد توحيد الوطن العربي.

في صباح هذا اليوم، السابع، أحضر رجال الحزب مجموعة من الرجال ووضعوهم أمام أحد الجدران.

- هؤلاء الخونة صدر بحقهم قرار الإعدام.

طلبوا منهم أن يصفوا هؤلاء الناس صفًا منتظما أمام الجدار. ثم يقفوا في وضع استعداد للرمية.

ارتعب مبارك وسعيد من فكرة أنهم قد تحولوا بالفعل إلى قتلة. ارتعشت يد مبارك. لم يستطع فتح الزناد. سعيد فتح الزناد وهو يحاول عبثا التظاهر بإطلاق الرصاص. عيناه مليئتان بغمص الليلة الفاتئة ورموشهما يتطايران أمام مجال الرؤية. لم يستطع التحديق جيّدا. بكى رجل في الخمسين من عمره كان يقف إلى جواره فارتعشت يده. وجوه هؤلاء الناس مرهقة يبدو عليها آثار الفقر لا آثار خيانة. أجسادهم هزيلة مرتعشة كما لو أنها أصيبت بالكوليرا. أو بأيّ وباء قاتل. سيصدّق سعيد بأنهم سيتخلصون منهم بسبب إصابتهم بوباء الكوليرا مثلا. لكن ليس لأنهم خونة. تساءل مبارك في سرّه: من أيّ سجن أو كهف أحضروا هؤلاء المساكين؟ وماذا خانوا بالضبط؟ لعلنا نحن الذين قمنا بخيانتهم. بخيانة حياتهم. وتجاوزنا على حقهم في الحياة. أحدهم كان حافي القدمين. وآخر كان يرتدي فردي حذاء واحدة. من انتزع الفردي الأخرى من قدمه؟ شاب صغير بدا كما أنه في العاشرة فقط من عمره، كان بلا قميص. قامته مهترئة. كأن الماء يقطر من شعره. رجل مسنّ محدودب الظهر قليلا، نظراته زائغة لم يكن يعي ماذا يدور من حوله. وجهه باهت كأن وحشاً قد نبش قبره وأخرجه منه. بقية الوجوه لبشر وقع عليهم الظلم طيلة قرون. لم يكونوا على أية حال من طبقة معروفة. لا ينتمون إلى البرجوازية أو الأرستقراطية ولا حتى الطبقات الفقيرة بكلّ أنواعها. تساءل سعيد أيضاً من أين أتوا بهؤلاء المساكين؟

أخيرا هطل الرصاص من كلّ مكان. تظاهر مبارك بأنه يرمي مثل الآخرين وهو يبكي بكاء مكتوماً. أطلق سعيد الرصاص وهو يغمض عينيه اللتين فاضتا بالدموع. في قرارة نفسه لم تكن رصاصاته لتصيب أحدا منهم.

تكدّست الجثث مثل علب فارغة.

أقعى الخمسيني على نفسه متكوّرا لما تأكّد بأنه قد أصبح الآن قاتلا.

انشرحت أسارير الأمر.

عاد إلى جيبه العسكري واختفى.

## الفصل الثاني عشر

### أحصنة طروادة

لا يعرف لماذا حدث ما حدث!

وليس لديه هوية ولا أدنى فكرة عن شيء من حياته السابقة.

يذهب لكي يسلم نفسه لمركز الشرطة لأنه لا يمتلك هوية ولم يعد قادراً على الاستدلال على شخصيته ولا بيته. لكن المفاجأة ستكون بعد أيام عندما يفقد مركز الشرطة كله ذاكرته واحداً بعد الآخر.

وفي ساعة الصفر ينتشر فقدان الذاكرة كإنتشار النار في الهشيم. يتساوى الناس ويتبارون في السخرية من بعضهم البعض. وينهار حتى الخوف من الأجهزة الأمنية. ثم تبني منظمات وأحزاب وعصابات ذاكرة جماعية جديدة لها تكدس فيها الناس حتف أنوفهم، في أيديولوجياتها القاتلة. والتي لا تعرف سوى الموت. ترمم تنظيماًتها بهؤلاء المساكين الذين فقدوا ذكراتهم وعائلاتهم.

من يعرف من؟

من يعرف بأنه ضابط ومن يعرف بأنه لص أو معارض؟

لا أحد!

تتدخل الميليشيات المسلحة من الخارج من كل نوع لكي تنهب الناس الذين بلا ذاكرة وتتنافس على ضمهم إليها. تنسبهم إليها كما لو كان الواحد منهم كلباً للحراسة أو للعراك أو لتتبع الأثر أو للصيد. كيف لم تفقد هذه الميليشيات ذاكرتها؟ هل فقدتها فتم حننها بذاكرة مزيقة. لا أحد علم الحقيقة.

هكذا كان يفكر سعيد وهو يدخل سيجارة لا يعرف ما ماركتها لأنه حصل عليها من جيب أحد القتلى. للأمانة التاريخية هناك من فتش جيوب القتلى وأخرج منها سجائر مفردة مدّ واحدة منها لسعيد الذي تخيل بأن هذه السيجارة كانت ستكون من نصيب تلك الجثة المكوّمة هناك ولكنها تحولت إلى شفتيه. لولا الرصاص لكان الرجل الذي أصبح جثة متكوّرة مثل صرّة موت يدخلها الآن.

تقرّر.

قال له رفيقه الخمسيني الذي تمّ تسميته عباس:

– يجب أن تتدخل الأمم المتحدة لتحديد من هو من؟

وزَّع سعيد الدخان في اتجاهات مختلفة كأنه يتقياً الدخان ولا ينفخه. فكَّر بأمر ما. ارتخت عضلات وجهه وما يزال الخمسيني يحدِّق فيه.

– أنت تفكَّر بأمر ما؟ أليس كذلك.

نظر إليه سعيد وربَّت على كتفه.

– ألا ترى بأنني الآن قاتل. ما دمت قد قتلت هؤلاء الأبرياء فما يمنع من أنني أقتل هؤلاء المجرمين. وأشار إلى مقاتلي حزب المحافظين.

– هؤلاء أحصنة طروادة في بلادنا!

تقل على الأرض وقرَّر شيئاً خطيراً وهو ينظر بحدَّة في عيني الرجل الخمسيني كما لو كان يختبر صلابته. قال الرجل الخمسيني:

– هناك ميليشيات كثيرة في البلد. كيف سننجو منها؟

لم يجبه سعيد الذي تغيَّرت ملامح وجهه كلياً. أخذ من وحشيَّة الألم خيوطا ارتسمت على وجهه.

أضاف عباس:

– أين النبلاء؟ هل أصبحوا شخصيَّات خرافيَّة نقرأ عنها في الكتب؟

– سنرى ماذا يحدث غدا!

– لا يوجد غد. الغد اخترعه الإنسان لتسليته. يوجد اليوم فقط. أمَّا الماضي فهو التعبير الذي توصل إليه الإنسان عن الخيبة.

أراد سعيد أن يقول لعباس: لماذا أنت متشائم جدًّا؟ لكن الفكرة التي كانت تدور في رأسه استحوذت عليه تماما.

على مدى أيام تمَّ حياكة مؤامرة على مستوى رفيع من الدقَّة. مؤامرة الهرب. كان خلالها سعيد هو القائد ومبارك وعبَّاس يساعده في التنفيذ. تتبَّع سعيد بدقة تحرَّكات رجال الميليشيا وعرف بعض الثغرات التي يمكن أن تسمح لهم بالهروب.

في ساعة الصفر تحرَّكوا.

كانت ساعة صفرهم الثانية بعد منتصف الليل حيث الكائنات تنام محدثة فراغاً في الكون يشبه ثقباً يمكن لهم من خلاله الفرار.

في الساعة الواحدة وخمسين دقيقة صباحاً همس سعيد في أذن مبارك: أليس من المفروض أننا فقدنا ذاكرتنا. أي أننا في حالة صفرية. نعود إلى النبع. إلى أنفسنا

إنسانيين. لا نعرف الكراهية. نبدأ بالحب. لماذا لا يحدث هذا؟ ولماذا الذي حدث هو فقط القتل والنهب والسلب؟

هذيان بلا آخر.

قال مبارك: لا أعرف إن كنت أعيش في خيال مدينة أم مدينة خيال؟ لكنني أحذرُك بأن الليل له حوافّ مستنّة.

بيد من قلق أمسك كلّ منهما بسلاحه بانتظار أن يأتيّ عباس الذي ذهب في مهمّة استطلاع. دخّن كلّ منهما آخر سيجارة له قبل موعد التنفيذ، وفي ذهن كلّ منهما أنها ربما تكون آخر سيجارة. شعر كلّ منهما بأن طعم السيجارة الأخير مختلف. طعمها يشبه لحظة سقوط إحدى هذه الجثث التي أطلقوا عليها النيران قبل أيام. دخانها أيضاً كان مختلفاً. تهيّأ لكل واحد منهما بأنه لا ينفث دخاناً بل نكهة بتزول ممزوجة برائحة الدم. تناهت إلى مسامعهما أصوات نحنحة فغيراً مجرى الحديث.

أخيراً وصل عباس: لا أحد في الطريق إلى الحرّية. هيا. قال لهما وهو يلهث.

– هل تفقدت الشوارع الخلفية؟ سأله سعيد.

– نعم. بعد ثلاثة شوارع لا يوجد سوى الظلام وسوير الليل. قال عباس.

– نعم الظلام.

ردّد سعيد وفي سرّه قال الظلام قارب النجاة في هذا الزمن. أو ربّما قارب الموت. صحّح لنفسه.

تحركوا من مكانهم مبتعدين بهدوء كما لو كانوا في دورية راجلة لا تلفت أنظار زملائهم من رجال الميليشيا، حتى اجتازوا الشارع الثالث الذي حدّثهم عنه عباس. وجدوا أنفسهم مرّة أخرى وسط الفوضى. رائحة احتراق جثث. التبس عليهم الأمر. ربما كانت رائحة شواء أو نفايات أو رصاص. داروا في الشوارع الخالية إلا من الحيوانات بلا هدى حتى مطلع الفجر. اشتم مبارك رائحة العطر نفسها التي اشتمها في تلك الليلة حين رأوا جثثاً لأول مرة وسمعوا صراخ امرأة تستغيث. كذب نفسه. أيّ عطر وسط كلّ هذا الموت؟

قال مبارك:

- أَرَجُو أَن نَكُونَ قَدْ ابْتَعَدْنَا عَنْهُمْ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ .

لَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ أَحَدٌ . أَضَافُ : هَلْ سَنَعِثْرُ عَلَى سَارَةَ ؟

بَقِيَ سَعِيدٌ سَاهِمًا . سَأَلَ نَفْسَهُ : هَلْ أَحْبَبْتَهَا ؟

شَعَرَ بِالْكَأْبَةِ تَحَطُّ مِنْ أَعْلَى كَالْغُرَابِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى قَلْبِهِ وَتَسْتَقِرَّ فِيهِ . حَتَّى أَنَّهُ سَمِعَ نَعِيقَهَا . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ أَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ نَعِثْرَ عَلَى فِتْنَةِ غَرِيبَةٍ بِلا ذَاكِرَةِ وَسَطِ كُلِّ هَذَا الظَّلَامِ ؟

## الفصل الثالث عشر

### أحلام في العناية المركزة

أغلب مشاكلنا من صنع الإنسان. الشيطان فقط يتدخل لعدم حلّها. عذاب أن أعيش حياة سرّية. حتى وأنا فاقد للذاكرة.

تذكّر سعيد كلام سارة عن أمريكا.

ترنّحوا من التعب. شاهدوا رجلا يرتدي ملابس الدراويش وهو يردّد: لا غالب إلا الله. عباس أخرج من جيبه ورقة مهووسة بالريح الخفيفة، وتتبع العنوان المكتوب فيها. طرّقا باب البيت. لا أحد سوى الصدى. اقتحم عباس البيت. كان التلفزيون يبث من قناة مجهولة. لماذا لا أحد في هذا البيت؟ ولماذا التلفزيون غير مطفأ؟ سأل عباس وهو يسدّد فوهة رشاشه باتجاه التلفزيون. ألقى مبارك بجثته على أريكة رثة وهو يطلق زفرة بحجم غيمة عاكفة في صدره منذ ما يشبه الأزل. بينما جلس سعيد على كرسي جلديّ مترف من جلد حيوان بلا حظّ، شاعراً بأنه يرتاح من عناء زلزال وقع في جسده. وبقي عباس واقفاً وقد قدح زناد ولأعته وأشعل سيجارة يتسلّى بها. كان هناك من يتكلم ملقياً خطاباً حماسياً في التلفزيون:

فتش عن أمريكا دوماً وأبداً في منطقتنا العربية. حتى ولو في جيبك. هذا ليس منطق المؤامرة بل الحقيقة التي تتجلى لنا يومياً عبر تصرّفات الإدارة الأمريكية تجاه منطقتنا العربية. لم نعد في السبعينيات من القرن الماضي حتى نخمّن وجود مؤامرة أمريكية. نحن نعيش اليوم في حقبة ما وراء النانو. هذا يعني أن الاستراتيجيات وعملية تطبيقها على الأرض لا يمكن أن تخفى أبداً على رجل الشارع العادي، فما بالك بالمراقب الحاذق والمتخصّص.

أضاف الرجل الذي بدا في الستينيات من عمره، من على شاشة التلفزيون بصوت متلجج: لنكن صريحين. ما يحدث في منطقتنا العربية من اقتتال بين العرب تحت مظلات مختلفة طائفية وجهادية وغيرها، تمّ التخطيط له في مطلع سبعينيات القرن الماضي. وقد وضع الغرب وفقاً لهذه الاستراتيجية القاتلة لنا مخططات لا تهدأ. ورأس الحرب في النظام الغربي أمريكا. وهي الآن اللاعب والمجرم الأبرز. إن لم يكن الوحيد الذي يعمل محمواً ليل نهار على متابعة تنفيذها. لقد خلقت أمريكا اقتتالاً في العراق وسوريا واليمن وليبيا وغيرها لا بهدف الغلبة، بل هو اقتتال يدور في حلقة مفرغة دائرية تستمر لسنوات عديدة تحرق الأخضر واليابس وتقتل البشر والشجر وتقرغ المقدرات والمدخرات حتى لا تقوم للعرب قائمة بعد ذلك، وتعيش إسرائيل آمنة. بل وتتوسّع! وهي بذلك اختارت تصفية العرب بكل اتجاهاتهم، ومطيئتها دوماً الحيوانات السياسية العربية التي تمّ ترميضها بالأحداث التاريخية، وغسل أدمغتها بهرطقات لا وجود لها ولا حدود.

خلخل خطاب الرجل رؤوسهم.

– من هذا؟ تساءل مبارك.

– ماذا يجري يا الله؟ قال عباس.

لا أحد منهم يعرفه.

لم أسمع كلاماً من قبل بهذه القوة الفاتنة! قال سعيد.

أما أنا فلم أفهم شيئاً! قال مبارك ساخراً.

أضاف الخطيب بصوت قوي: إذن فتش عن أمريكا. إن تصرفات أمريكا العدوانية واضحة لا تحتاج إلى التفتيش عنها. أمريكا لا تريد لهذه الصراعات أن تحسم بل تريد أن تستمر في دائرة مفرغة لا تنتهي. ومخططها تجاه القسم الشرقي من الوطن العربي كلها قاتلة. حوّلت الشرق العربي إلى خزان موت. الوطن العربي الذي كان يزخر بالشعر والأدب والعلم والجمال تحول إلى مكان خطر للعيش فيه.

إنه مذبح لقرابين لا تنتهي. رأي الشخصي وبلا لّف ودوران أن عدوّ العرب اليوم وأمس وغدا هو أمريكا. وما نراه على الأرض من أحزاب وجماعات مهووسة بالقتل ما هو إفرازات لهذا المخطط. وعلى الدول العربية الحذر ومقاومة المشروع الأمريكي في المنطقة. فأمريكا لم تكن صديقاً ولن تكون. وإذا كانت تعد نفسها صديقاً لدولنا فهي أخطر صديق في التاريخ! وإذا لم نتمرد سرّاً وعلانية على هذا الصديق المجرم فإننا بلا شك سنندم ووقتها لن يفيدنا الندم. يجب أن نستبق المخطط الأمريكي ونسعى بإصرار لإفشاله. والعمل بكل احترافية على وأد الفتنة الطائفية وتطييف المجتمع ومعالجة التطرّف من جذوره وإعادة النسيج الاجتماعي العربي إلى انسجامه السابق. وأنا أتحدّث عن أمريكا لأنه من العبث أن نتحدّث عن صنائع أمريكا في منطقتنا، مثل أحزاب المحافظين والأحرار وذوي الأيدي الطويلة، وكل الميلشيات الأخرى، دون أن نضع يدنا على الصانع وهو أمريكا! فكيف تستقيم صداقة أمريكا لنا وهي صانع كل هذه الوحوش التي تهدّدتنا ليل نهار؟

حين انتهى الرجل من خطابه. قال عباس بذهول:

– يكفي تعطيل القوانين لمدة يوم حتى تختفي نصف الحياة في الكرة الأرضية!

أضاف:

– اختفاء العرب كإمبراطورية بسقوط بغداد والأندلس ودخولهم في مرحلة تحوّلهم إلى رعايا في ممالك أخرى سوف يستمرّ إلى يوم القيامة!

– لماذا أنت متشائم؟

– لأنهم أغبياء! وهذه هي نهايتهم.

قال المذيع حليق الذقن والذي يرتدي سترة زرقاء داكنة، وقميصاً أبيض، وربطة عنق حمراء: والآن سيتحدّث أمين عام التجمّع العربي السيد سالم نصّار.

قال سعيد: لا يمكن أن يكون هذا المؤتمر في بلادنا. وإلا لكانوا قد فقدوا ذاكراتهم. أين يمكن أن يكون؟ في أيّ قارة من قارات العالم؟

قال سالم نصّار: ها قد أنتت الأيام بالمخطط الكبير. إسقاط ذاكرة شعبنا العربي! هذا الوباء صناعة أمريكية. وما هذه الأحزاب سوى شركات أمنية مشتركة. كل تجمّع مخترق. يجب أن نحذر من الاختراق. أيها المثقف العربي أينما كنت: متى تستيقظ؟

أصبح السيد سالم نصّار الآن يصرخ عبر الميكرفون: ألم يستفزك أن الكلمة العليا في بلادك لأجنبي. ألم يستفزك أعلام الدول الأخرى ترفرف فوق رأسك؟ ألم يستفزك تهجير العرب؟ ألم يستفزك وجود قواعد سرية في بلادك؟ ألم يستفزك عدم سفر أبناء جلدتك من العرب إلى بلادك كما كان يحدث منذ مئات السنين؟ فمتى تنور إذن على هذا الاحتلال؟ ألم يستفزك أن السجون امتلات حتى ضاقت؟ ألم يستفزك النهب والسلب بالمليارات لثروات بلادك؟ ألم تستفزك كل هذه الديكتاتوريات؟ ألم يستفزك القتل على الهوية؟ ألم يستفزك أيّ شيء؟

ثم حرّك رأسه كأنه سيموت مُطلقاً هذه الصرخة التي بدت كأنها الأخيرة قبل السقوط:

إذا لم يستفزك كل هذا... فمن أنت؟

ثم ترك الميكرفون للسيد كاظم جواد من العراق.

قال مبارك: كل هذا يحدث في بلاد العرب ونحن لا نعرف. قال عباس: من قال لك بأننا لا نعرف؟ نحن فقط الآن الذين لا نعرف لأننا فقدنا ذاكرتنا. قال سعيد: منذ متى ونحن فاقدو الذاكرة؟

– ما هو القتل على الهوية؟ لم أفهم. تساءل مبارك. لم يردّ عليه أحد.

بقي سعيد ساهما يدخن.

– هل من لديه هوية يُقتل؟ أم من ليس لديه هوية؟ قال عباس.

– اشششششش. ردّ مبارك. دعنا نسمع.

قال كاظم جواد: نحن في عصر شيطاني ينحسر فيه كل شيء جميل ويتعري الطغاة والمثقفون الفاشلون. بنست الأحزاب التي تُلغي الإسلام والدين والأخلاق والشرف والإنسانية. بنست الأحزاب

والمثقف المتحزّب أشدّ خطراً وضرراً على هذه الأمة من العدو. لا صداقة مع حزب عميل. طز في حزب يجعل المرء في صف واحد مع الشيطان. أضاف بحنق: وها أنذا أمامكم العراق وطني لكنني في الوطن لا أتبع مذهبي بل وطني، والوطن العربي أمّتي. بل أن هناك من تحوّل إلى صهيوني! هذه أمة بلاؤها منها وفيها! كثرت الأمم المتداعية علينا.

أضاف وقد فتح ياقة قميصه من الاختناق: استورد الغرب نظاماً من خارج الوطن العربي مسرطناً إلى داخل الوطن العربي هو إسرائيل. وهو نظام لاهوتي تم استدعاؤه من أعماق التاريخ الدموي والطائفي أو العرقي لكي يتعجر التعايش الجميل في هذه المنطقة من العالم لمئات السنين، مما يمنع أي تنمية إنسانية حقيقية في هذه الدول ويتعم الغرب بتدفق النفط والثروات وتكون منطقتنا سوبرماركت كبيراً لبضائعهم الفاسدة. أي خرافات من التاريخ يشنونها ضدنا؟ هناك خزعات لا رحمة فيها تشن على الناس بلا هوادة وتصور على أنها الحق، وما هي بالحق. مشكلة شعبنا العربي الخوف. منذ ألف سنة وهو يخاف. منذ سقوط بغداد. يشبه وضعنا الحالي وضع أوروبا في القرون الوسطى. والفرق أن القرون على رؤوس من يُفتي بالقتل يمكن أن تراها على الفضائيات التي إذا أردنا الدقة فهي الفضائيات...

أقول يا للبؤس! والآن لا يهمننا كل ذلك. فيا ما في السجن مظالم!

لم يفهموا ماذا يقصد. هل لا زال في السجن ناس؟

أكمل:

الناسا تطلق قمرًا صناعيًا لكي يحصي عدد الخونة العرب. والقمر يسقط مثقلاً بجراحه العميقة. والناسا تلغي العملية برمتها وداعش تتبنى العملية!

وأقول لكم الآن لا يقل لي أحد منكم بأنني من الطائفة الفلانية أو العلانية. أنا ولدت عربيًا مسلمًا وسأعيش عربيًا مسلمًا. أهلي ربوني على أنني عربي مسلم.

– هل هناك من يؤمن بهذا الكلام؟ علّق عباس محرّكاً رأسه.

أكمل الخطيب: الأندلس كانت دولة إسلامية عملاقة متكاملة الأركان، سواء وهي تحت مظلة الخلافة أو حتى عند استقلالها عن المركز. لكن عندما طمع كل أمير بإمارته وتفككت إلى دول الطوائف بدأ العد التنازلي لزوالها إلى الأبد. أما من أزالها وقدمها إلى أعدائها من قشتالة وأرجون فهم أمراء الطوائف أنفسهم يتعاون كل واحد منهم مع العدو على الأمير المسلم الآخر حتى تم إسقاط هذه الممالك الواحدة بعد الأخرى، دون أن يتعظ من يكون دوره على لائحة انتظار السقوط والابتلاع.

بل استمر الغباء والأناية حتى مع آخر مملكة تبقت من الأندلس، وهي مملكة غرناطة. فقد استمر الاستعمار والأناية حتى آخر لحظة حين دخل الأسبان إلى غرناطة وطردوا ابن الأحمر ثم بدأوا مذابحهم الشهيرة ضد المسلمين. وهكذا يرتكب بعض الحكام بغائهم الخيانات والتآمر مع الأعداء ثم يسقطهم هؤلاء الأعداء الحلفاء ثم تبدأ حفلة دفع الثمن المر من قبل الشعوب قتلا وتشريدا. والتاريخ يعيد نفسه بغباء مستقل. وهذا بالضبط ما يحدث في الوطن العربي. أعتقد أن هذه الأمة كلها ستدفع ثمنا باهظا لهذه الرعونة التاريخية.

- يذكرني بخطابات كاسترو المطولة! علق عباس مرة أخرى. لكن يبدو معه حق هذا الرجل!

أضاف بصوت بدأ يصبح متهدجا:

أمة لا تفعل شيئا. غباء. أثبت الزمن أن الإمبريالية ليس لها حل. وأنها الامبراطورية التي لا يغيب عنها الشر. والاسلام ليس له حل لأننا نحن المشكلة. والطغيان ليس له حل. وقد اجتمع على العرب الطغيان والامبريالية. ثاروا على الحكم العثماني الجائر. أرادوا أن يتخلصوا من طاغية ظالم فتحالفوا مع قوى امبريالية انتصرت على ظالمهم لكنها قسمتهم. وأوكلت ظلما عليهم بالوكالة. والنتيجة اجتمعت عليهم ثلاث سرطانات: التقسيم والطغيان والامبريالية. إن الفرق بين الديمقراطية والديكتاتورية: في الديمقراطية يستدعونك كل أربع سنوات لكي تضع ورقة في الصندوق! وفي الديكتاتورية لا يستدعونك!

- كلام الرجل كله مفخخ!

□  
لماذا تُرضي الشيطان؟ ألا تريد أن تموت والله راض عنك؟

رنت الجملة الأخيرة في رأس سعيد وتذكر سارة فانبعثت غمامة حزن أمام عينيه.

قال المتحدث:

□  
هناك لحظات نصبح على أحر من الجمر حتى تصبح ذكرى في حياتنا. هناك ناس تسجد شكرا لله أنهم خرجوا من حياتك. والعكس صحيح. البعض منا أحلامه في العناية المركزة بينما يعيش هو على أوهامه.

صرخ: حدد لنفسك ساعة الصفر! استعد لصد هجوم النسيان. واستبشر خيرا بالزهايمر! فأنت ما زلت في ذكر الله. كأن الذاكرة تتوب عن خطاياها وتكفر. لكن لا نبيع أمتنا ونقول إنها أمة للبيع بداعي السفر. أمة للبيع بكامل معداتها لم تستعمر سوى ألف عام! وعقلها على الصفر لا تجعل وطنك بلا باب للخروج. لا تجعل أيامك كلها أيلول الأسود. نريد أن نصبح مثل خلق الله الآخرين في هذا العالم. لا تدمر نفسك ووطنك بالسمع والطاعة! السمع والطاعة جناية على هذه الأمة.

وأخيراً أقول وبكل صراحة: تتوحد البلدان العربية في أمة عزيزة واحدة عندما يتنازل المصري عن مصريته والعراقي عن عراقيته والسعودي عن سعوديته والشامي عن شاميته. وإذا لم يحدث هذا ولا أنه سيحدث في زمن قريب فستبقى هذه المجموعة البشرية التي تقطن المساحة الجغرافية من نواكشوط إلى مسقط هي المجموعة البشرية الأقل كرامة في العالم. والأكثر تخلفاً وهامشية وسيبقون في الحالة السوبرماركتية. فإذا لم نصحو ونتوب في هذا الوباء فمتى نصحو ونتوب؟ الله لا يرضى عن أمة غافلة.

- يا رجل أقتل هذا التلفزيون فوراً! قال مبارك. وأضاف:

- أشعر بأنه سمّ رأسي ونشر فيه الكآبة.

كان المشغل بيد سعيد. فقال عباس:

□  
- بالله عليك أقتله. سيقتلنا هذا الجهاز وما فيه من أفكار جرثومية!

- صدقت.

ناموا كالموتى وسط الكوابيس وذوت الخطابات التي سمعوها وسقطت في النسيان.

في الصباح نزلوا إلى الشارع فوقعوا في قبضة الحزب مرة أخرى!

قال لهم عباس بأنهم باتوا هنا يحرسون هذا الشارع. فأمرهم قائد لم يرونه من قبل: إذن هيا لنحتل ما تبقى من هذه المنطقة!

## الفصل الرابع عشر

### حرب القهوة

الوطن فخر محكم من يجرؤ على النجاة منه.

ردّد سعيد في سرّه. أصبحت لحيته الآن طويلة. وبيده رشاش. يقدر ناراً لسيجارته من ميت سابق. كان حيّاً عندما التقاه لبضعة سويكات. لم يستطع الرجل أن يحتفل هذا الوضع الشاذ. أخذ الرشاش من يد أحدهم وقتل خمسة من رجال الحزب. بعضهم من فاقدى الذاكرة، ولم يكونوا أصلاً من الحزب، بل مجرد تائهين أوقعهم حظهم النحس في هذا المكان من العالم. شعر سعيد بأنهم عندما ماتوا كانوا لا يعرفون لماذا قتلوا؟

– خذ هذه الولاة. أنا لم أعد أدخن. ولا أدري لماذا أحتفظ بها إلى الآن؟

قال له سعيد وقد أشفق عليه من اسمه الافتراضي خالد. وطبّط على كتفه:

– يجب أن تخرج من هنا.

– أخطط لذلك!

لكن سعيد لم يتوقع أن يحاول خالد الهروب بعد بضع ساعات فقط. وكان قد روى لهم بأن هناك حرب قهوة تدور رحاها في هذا العالم. اجتاحت العالم نقص حاد في القهوة بسبب الحرب.

– أية حرب؟ سأله سعيد.

– الفوضى أقدر من الحرب! حرب هذا الوباء، وحرب العصابات والميليشيات التي أطلقها هذا الوباء. حروب لا تهدأ. قال خالد.

ردّد سعيد بأنهم على ما يبدو لم يضلّونا على نحو مقنع. هذا هو التضليل التام. وقيل لي أيضاً، قبل عصر التغميم هذا كان هناك أناس بلا هوية. فاقدوا الذاكرة.

– لا! كانت ذاكرتهم قوية جداً على نحو مفرط لذلك لم يمنحونهم هوية. قال خالد.

– هل هذه هي الحقيقة؟ سأله سعيد.

– الحقيقة! أية حقيقة؟ هي دوماً محجوبة عنك. حتى هذه اللحظة من يعرف الحقيقة؟ – من يعرف حقيقة ما يجري؟ قال خالد.

انضم إليهما مبارك. قال:

- حلمت بأن ذاكرتي قد عادت إلي. لكن أسماء الشوارع قد تغيرت في الحلم.

المدينة ليست سوى أسماء شوارعها. فهي تعبر عن طبقاتها الاجتماعية.

قال خالد وقد وهو يعبث بولآعته، يشعل النار ثم يطفئها، كما لو كان يتهياً لارتكاب فعل ما، لكن أحداً منهم لم ينتبه.

كانوا في لحظة استرخاء حين قفز خالد من مكانه خاطفاً الرشاش من الرجل الذي كان في لحظة غفوة. استراحة محارب. فأرداه قتيلاً على الفور. صوت الرصاص جعلهم يظنون بأنها غارة من حزب معاد. أو من داعش. لكن خالد بشعر لحيته الكثيف وشعر رأسه المتهدل فوق كتفيه، انطلق وهو يصرخ: هؤلاء الكلاب. إنهم أو غاد. وهو يفرغ كل رصاص الرشاش بأجسادهم. مخلفاً قتلى وجرحى. حتى فرغ المخزن. فتم تنقيب جسده بالرصاص.

احتاج سعيد إلى أوقات طويلة كي يتبدد هذا الموقف من خياله. كان طيف خالد المتمرد لا يريد أن يخرج من رأسه ويدفع به إلى الجنون أو التمرد. وتساءل من يكون هذا الرجل؟

## الفصل الخامس عشر

### الحدود الروسية

بعد هذه الحادثة، حادثة ثورة خالد، تم نقلهم أخيرا إلى منطقة سكنية أطلقوا عليها اسم النهروان. كل مجموعة تصل إلى حوالي عشرة رجال في شاحنة.

بدأت الشاحنة التي أقلت مبارك وسعيد قديمة جدا. مغطاة بالكامل بطربال من الكتان البالي. لونه حائل كأنه لطفة عار. لم يستطيع أي من الرجال ذوي الوجوه الشاحبة أن ينظر إلى الخارج. بدأت ضربات قلوبهم تسمع مع دوي عجلات الشاحنة الصغيرة. فكر كل منهم بالهرب. الهرب غريزة الأحياء. فقدوا ذكراتهم، لكن الهرب لا يشملهم النسيان. حاول سعيد أن يخمن كم من الوقت سيمضي حتى تصل هذه الكومة من البشر المكدسة في هذه الشاحنة إلى الوجهة الأخرى. وجهة لا يعرفها، نسيتهما الاتجاهات وفقدت أثرها في قلبه. نظر في وجه مبارك. نبتت لحيته وطالت منذ أن رآه أول مرة في هذا العالم. قال في سرّه: هذا هو العالم الافتراضي. هل نحن في فيلم؟ من يصورنا الآن؟ أين المخرج؟ أصبحت لحية مبارك مثل لحية شيخ طاعن في السنّ.

بقية الوجوه بائسة لا تختلف عن وجه مبارك. عيون وخدود غائرة. جباه متسخة. ونظرات زائغة كالمصير الإنساني. لا يبدو أي منهم بأنه قد عرف حزب المحافظين من قبل ولا حمل الرشاش، ولا أي حزب من هذه الأحزاب التي تقتل البشر لأسباب تافهة. فكر سعيد بسارة. أين أنت الآن يا ترى؟ عندما رآها أول مرة شعر في داخله بأنه يعرفها منذ زمن بعيد. لم يقل لها ذلك. ولم يبح حتى لمبارك بما شعر به. سأل نفسه: هل يعقل بأنني لا أعرفها قبل هذا الوباء؟ لدي إحساس يسري في شراييني كأنهار وارفة بأنني أعرف هذه المرأة التي تشبه غيمة مأثورة.

مرت الشاحنة بمطب كبير أسقط الرشاش من أيدي بعض المقاتلين الساهمين بأفكارهم، والشاردة أرواحهم في مكان آخر. بعضهم ضحك بطريقة مجنونة. البعض ازداد عبوس وجهه.

قال مبارك لسعيد: لا بد من الهرب الليلة وإلا فسوف لن نبقى معا. سيفرقوننا كما اقتطعوا سارة منا. أو يقتلوننا كما قتلوا ميشيل وخالد وآخرين. أشعر بأنها آخر فرصة لنا.

أضاف بكمد: حين تستيقظ صباحا قد تكون أنت القاتل. فانتبه.

ردّ سعيد بشغف غريب: أو المقتول!

كانوا يتكلمون بحرية دون خوف من بعضهم البعض. فلا أحد منهم يشعر بأنه ينتمي إلى هذا الحزب.

بعد حوالي ساعة توقفت الشاحنة وتم فتح الباب لينزل كل هؤلاء الرجال منها.

بدأت المدينة خرائب تعوي. قفار بلا حدود. مراثي تندب حظها.

البرد شديد. في أي شهر نحن؟ تساءل فتى كان معهم اسمه سامي. قدّر سعيد بأن عمره في الخامسة عشرة. لكنه طويل وبنيته قوية وبدأ أكبر من عمره.

– في شهر ليس فيه ذكريات!

قال مبارك وهو ينتهد بصوت مكبوس.

– في شهر ليس فيه سوى البرد والنسيان!

ردّ رجل بلحية غزيرة لم يعرفوا اسمه.

سمعوا أصوات طلقات الرصاص تتردد في الأفق. تحسسوا رشاشاتهم.

هل هو تمشيط للمنطقة أم هجوم من مجموعة معادية؟

قال سعيد في سرّه.

علم سعيد من أحد رجال الميليشيات بأن منطقة غرناطة قريبة جدا من النهروان التي لم يكن اسمها النهروان. كانوا يغيّرون أسماء المناطق التي يسيطرون عليها. ظل سعيد يسأل أينما تم نقلهم. بقي الاسم والعنوان في رأسه مثل شاهدة قبر.

لا أحد يعلم كم مرّ من الوقت والأيام منذ أن وجدوا أنفسهم في هذه الفوضى الشاملة. لم يعد أحد منهم يعدّ الأيام. لا يهم أبدا كم مضى. فالذاكرة الخربة فاقدة لحاسة الشم.

أمرهم القائد بأن يتوزّعوا على رؤوس الشوارع. حول معصمه سلك شائك لم يعرفوا كنهه. ربما كان جهازا للتواصل. صلعه منحه قوة وبأساً. على الرغم من أن صوته رخيم. لحيته مشدبة للتضليل.

تمشّوا في الشوارع بدون هدى. وضع مبارك الرشاش على كتفه وطلب من عبّاس سيجارة.

على مبعده كيلومتر تراءى لهم منظر غريب. بعض الرجال يمسكون بكلب ويقطّعونه إربا. لكن أحد رجال الميليشيات صرخ بهم من بعيد: من جماعتنا! واصلوا سيرهم. كانت النباتات على الطريق يابسة وبعضها تذروها الريح الخفيفة.

حين اقتربوا رأوا جماعة من الناس بملابس بيضاء ترقص على وقع الدفوف. ثم فجأة خرج رجل من بين الصفوف وصاح بطريقة استعراضية وضرب نفسه بسيف فانفجر الدم من رأسه. زاود عليه رجل آخر في يده رشاش كالذي في أيديهم ورش نفسه من ناحية الخاصرة. كبر الناس. وخرّ الرجل صريعاً فحملوه فوراً إلى جهة مجهولة.

– ماذا يحدث؟ قال عباس.

– ما هذا؟ تساءل مبارك.

– هل يعرف أحدكم ما هذا؟ علّق سعيد بشرود ذهن.

– هل هؤلاء هم رجال الصوفية؟

لا يبدو أن أيّ منهم قد عرف هذه الطقوس.

تحرك سعيد وأمرهم بالتحرك فوراً. لا أحد سيضمن ماذا سيحدث في النقلة الأخرى. قد ينتابهم حماس أكبر فيطلقون عليهم النار.

واصلوا المشي حتى وصلوا إلى حاجز أحمر هائل ممتدّ على طول كيلومترات عدة. وكتابة بخط منتعّب لا يُقرأ بسهولة: ممنوع الاقتراب. الحدود الروسية.

وضع سعيد يديه خلف رأسه وهو ينظر إلى هذه الحدود الحمراء.

نظر إلى رفيقيه وهو في ذهول جغرافي كمن وقع في فخّ في غابة أو طريق مسدود لا يفضي سوى إلى حافة جبل كأنها هاوية:

– هل وصلت الحدود الروسية إلينا أم أننا ذهبنا إليها؟ أم أن مدينتنا كبرت إلى هذا الحد؟

خطرت له خاطرة جهنمية أراد أن يقولها لهما لكنه احتفظ بها لما بعد. قدّر بأنه لم يحن أو انها بعد.

عباس له عيان صغيرتان ثاقبتان وحاجبان مرتفعان جدا. وجفنان كبيران مسودّان. كما أن أنفه مدبّب وله شعر الممثل الآن دلون. لحيته ناعمة تبدو وكأنه قد سرّحها للتو. ويحب أن يرشق بالماء كل هذه التفاصيل في وجهه. فترى لحيته دوماً مبلّلة أو يقطر منها الماء. هذا الرجل الذي قدّر سعيد عمره بنحو الستين عاما قد قال الآن حكمة:

– هكذا إنن. نزول كل الحلفاء والخلفاء في أرض البؤساء!

– هل شحنونا إلى الحدود الإيرانية الروسية أم ماذا؟ فأنا لم أشعر بأن الشاحنة قد قطعت مسافات طويلة. قال مبارك.

– لا. هي مدينتنا. أعرفها حتى ولو بالحدس. حتى لو قطعوا رأسي سأظل أعرفها! قال سعيد.

– إذن ما الذي يحدث؟ سحفاً! سأجنّ. قال مبارك.

مرّت ثلاثة أيام في هذا الموقع الذي أسماه قائد الكتيبة بالنهروان حين هجمت عليهم مجموعة مسلّحة لم يعرفوا هويّاتها. أول رصاصة أصابت الرجل الستيني عباس فأردته قتيلاً أمام أعينهم. سحب مبارك سعيداً بعيداً خلف ساتر من الخيش.

استمر الهجوم حوالي ساعة.

قُتل من قُتل. وفرّ من فرّ. ووقعت بقية الكتيبة التي كانت بلا إسناد بين جريح وأسير.

لم يبق من الكتيبة أحد.

## الفصل السادس عشر

### عقارب الساعة ترجع إلى الوراء

فزّ سعيد ومبارك ومعهما الشاب الصغير سامي، في الخامسة عشرة من عمره. أو يفترض أن اسمه سامي، في معصمه ساعة وفي وجهه زغب خفيف جعله يبدو بلحية حتف أنفه. بنيته لا تشي بعمره. عيناه بنيتان. وتبدو نظرتيه من بعيد كما لو كانت رمادية بلون الغيم. شعره مسرّح إلى أعلى على طريقة الفلاحين. لا ينظر إلا إلى الأفق وهو يتحدث. زائغ النظرات. لمعت في معصمه الساعة الكبيرة.

سأله مبارك:

كم الساعة الآن؟

إنها تعمل بالعكس.

ماذا تعني بالعكس؟

عقارب الساعة ترجع إلى الوراء!

قال سعيد في سرّه: يا لها من مزحة من هذا الفتى؟ لسنا في وقت مزاح. أرنيتها. قال مبارك. فتسمّرت عيناها على ساعة الفتى. التفت نحو سعيد: إنها ترجع إلى الوراء. العقارب تعود إلى الوراء. قفز سعيد لكي يرى.

– ماذا يحدث لهذا العالم؟

– ضرب المدينة زلزال. زلزال للمخ. قال الفتى سامي.

– هل تعرف الزلزال؟ هل رأيتّه؟ قال مبارك.

– ها أنذا أعيشه! قال سامي متصنّعا الدهشة على وجهه.

– هذا جنون! قال سعيد.

– لسنا بحاجة للجنون. كنا بحاجة للجنون لما كانت ذاكرتنا تعمل بقسوة ووحشية وترهقنا ليل نهار، وبخاصة في الليل، لأدنى سبب تافه. الآن لا حاجة للجنون ما دمنا قد فقدنا ذاكرتنا. مرحى! قال مبارك.

تتحنح سعيد محافظا على نبرة صوته. قال: هل تعتقد أن المجانين فقدوا ذاكرتهم؟

كان يرمش بطريقة آلية. ومرات بعين واحدة. لا يعرف كيف يحدث له ذلك.

- في الواقع... قال مبارك.

- عندما نقول في الواقع هذا يعني أننا لسنا في الواقع ونريد أن نعود إليه. ضحك الفتى بهستيريا وهو يسحب يده ويرفعها إلى أعلى وينظر إلى الساعة من جديد.

تواترت الأخبار من أفواه الناس في الشوارع التي مرّوا بها عن انتشار الفوضى في كلّ الوطن العربي. الذين يتقاتلون لا يعرفون لماذا؟ بقيت سارة في التنظيم النسائي لا تعرف عنهم شيئاً. التقوا رجلاً ستينياً قال لهم بأنه ساحر.

- ساحر!

- نعم!

بدا مثل مشرد ينعم بأجواء الفوضى حيث تشرق عليه الشمس وتغيب دون رادع.

- لو كانت لديّ ذاكرة لقتلتك يا رجل. اغرُبْ عن وجهي. صاح به مبارك الذي كان بمزاج سيء.

صاح الساحر من بعيد: ما هذه المدينة القليلة الحظ؟ حتى الشعوذة لم تعد تؤكّل خبزاً!

وصلوا إلى عمارة بدت مهجورة لون واجهتها مثل طير منتوف الريش. مدخلها مطابق لشروط مستشفى المجانين. ماذا كانت هذه العمارة من قبل؟ سأل مبارك. ارتقوا الدرج إلى الدور الأول. الرائحة سيئة. عفن وسمك. هل كان سكان هذه العمارة من البحارة؟ علق الفتى سامي. ضحك سعيد.

- موقعها جيد.

اختروا شقة منها. شقة مهجورة في الدور الأول فيها شرفة تطلّ على الشارع بحيث يمكن لهم مراقبة ما يحدث ورؤية الخطر. بدا لهم المنظر كما لو كانوا يطلون على طروادة المحترقة. الأشجار يبست في الأفق. ورائحة الوباء تنبعث من الساحات إلى أنوفهم في الشرفة. في هذه الشقة سيقضون ليلة لا تنسى.

هبط الليل المجنّح على المدينة ثقيلًا. ورفرف آخر طائر بأجنحته وغاب في البعيد. كأن الليل أيضاً كان يبحث عن مبيت. وتراكضت مجموعات من المسلّحين مختبئين وراء البنايات هرباً من وحش الظلام. لم يكن لديهم إنارة. وطأ الفتى على شيء:

اللجنة عليكم. إنه خراء السادة والرهبان.

ضحك مبارك وسعيد.

– اهدأ يا فتى.

– لن أهدأ قبل أن أقتل واحدا منهم!

– هل قتلت من قبل؟

– لا ولكن أول من سأقتل لا بد أن يكون واحدا من هؤلاء.

سمعوا عواء في الخارج.

– هل لدينا ذئاب في هذه البلاد؟ تساءل مبارك باستغراب.

– هل أنت متأكد بأنه عواء ذئاب وليس نباح كلاب؟ قال الفتى.

– أششش.... أمرهم سعيد بالسكوت.

كانت هناك أصوات تقترب. جهّزوا رشاشاتهم. أصوات أقدام تصعد السلم. تقترب. صوّب كل واحد منهم رشاشه باتجاه الباب. تم فتح الباب ببطء. انتظروا حتى دخل شبهان بظلمين ميّبين.

صرخ الفتى سامي: ارفعوا أيديكم وإلا قتلناكم!

صرخت امرأة عجوز:

□  
– لا بالله عليكم.

قال رجل معها:

□  
– لا يا أبنائي بالله عليكم.

– من معكما؟ سأل مبارك.

□  
– لا أحد. نقسم بالله.

لم يكونا سوى بئسين بلا مأوى. روى الرجل وامرأته لهما أن الناس اختلطوا في بيوت بعضهم البعض. نسوا بيوتهم السابقة. ولم تنبت لهم ذاكرة جديدة. العائلات الآن مختلطة من كل الأجناس. لم

يفهم سعيد. ماذا تعني مختلطة؟ سأل الرجل الشيخ:

- قد يدخل رجل أو امرأة إلى بيت عائلة ثم يصبح منهم إن وثقوا فيه. هناك عائلات تكوّنت بعد هذا الوباء. كل فرد منها لم يكن يعرف الآخر من قبل!

هزّ سعيد رأسه اندهاشاً. لكنه سرعان ما تذكر نفسه ومبارك وهذا الفتى سامي. فهم أيضاً لم يكونوا يعرفون بعضهم قبل هذا الوباء. رسخت كلمة العائلة في ذهنه. اعتبر في سرّه مبارك والفتى هم عائلته.

أضاف الرجل الستيني وهو يمسح عينيه، ولم يتمكّنوا من معرفة إن كان يمسح دموعه أو أن عينيه كانتا مصابيتين بمرض ما:

- تمسكوا بما في أيديكم!

- ماذا تعني؟ ردّ مبارك.

- أغلب البيوت محجوزة.

- ولكننا نرى العكس. البيت مهجورة. قال الفتى.

- يا بنيّ البيوت المهجورة منهوبة. أنا أقصد البيوت التي فيها شيء من الطعام والشراب ويمكن للمرء أن يعيش فيها.

- نحن هنا لا شيء لدينا. مجرد شقة مهجورة سنغادرها في الصباح. قال سعيد وهو ينهض من الأريكة المليئة بالغبار ورائحة طعام متعفن.

لم يتضح من الرجل سوى عمره. ملامحه معتمة. لحيته خفيفة غزاها الشيب. أنفه أفطس. عندما يريد أن يتحدث يتراجع عن نصف الكلام. لا يبدو مقتنعا بما يقول. أو أن لديه انفصاما بالكلام. أعطاهم انطباعاً بأنه ملّ من حياته. أما المرأة فهزيلة البنية كأن العافية قد هجرتها منذ أعوام طويلة. في بنصرها خاتم يبدو قديماً جداً لا تحاول أن تخفيه. لها وجه بيبضاوي بدت علامات الجمال السابقة عليه. تتلفع بشيلة سوداء.

سأل مبارك، الذي كان متوتراً ويدور حول نفسه، الرجل الشيخ: هل منطقة غرناطة قريبة من هنا؟

ردّ الشيخ بصوت أجش ومتحشرج: نعم. أظنها على مبعده خمسة كيلومترات من هنا شمالاً. هل لديكم أهل فيها؟ سأل وهو يدور عينيه بينهم. تردّد مبارك لكنه اكتفى بنعم. قال سعيد لكي يبعد التركيز عن مبارك: هل لديكما أولاد؟ وأين هم الآن؟

- لدينا. لكننا لا نعرف مكانهم. تعرف ما حدث. الجميع تقريبا تائه بسبب هذا الوباء.

- هل فقدتما ذاكرتكما؟ سأل الفتى.

- لا يبدو ذلك. وهذا أسوأ ما حدث لنا! قال الشيخ وعاد إلى جسّ عينيه بظاهر يده.

بكت العجوز. التقنوا نحوها. بكأؤها أعادهم إلى الحياة الحقيقية. إذن هناك من يبكي على فقد عزيز. لم يروا حتى الآن سوى القتل والنهب والسرقة والميليشيات والتتمّر ومحاولة الاغتصاب. لا أحد منهم جرؤ على الكلام. الصمت يمكن أن يصعد إلى السماء أيضاً وليس فقط الكلام. أخذ الرجل بيد امرأته واختار غرفة فيها حمام. الشقة كانت بسيطة. أسرّة نوم وسجاد مليئ بالغبار والعثة والروائح الكريهة التي اعتادوا عليها فلم تعد تؤثّر فيهم. كأن أهل الشقة قد هجروها منذ أكثر من عام. لا أثر للترف فيها. ربما كانت لعائلة فقيرة أو تم نهبها بعد الوباء.

ناموا جميعا بعد أن هدّهم التعب. نام الفتى سامي في الصلاة وهو يصوّب رشّاشه باتجاه الباب في النوبة الأولى من الحراسة. بينما نام مبارك وسعيد في الغرفة الثانية.

رأى سعيد كابوسا. رأى نفسه محاطا بحيوانات غريبة لم يرها من قبل. مخلوقات شريرة. بدأ يصرخ وهو يرى نفسه محاصرا من كل اتجاه. المفاجأة أن صراخه كان بلا صوت. حنجرته دقيقة لا تستطيع إخراج الصرخة. استيقظ وهو يلهث. نظر إلى مبارك. كان في سابع نومة. حمد الله على أنه كان مجرد كابوس. أمسك بزجاجة الماء التي كان قد وضعها على الأرض قرب رأسه وشرب منها لكي يطفى عطشه. تأكد له بأن الخائف يعطش. حاول العودة إلى النوم. لكن إحساسه بمجيء الكابوس إليه بمجرد أن ينام حرّمه من النوم. ظلّ يتقلّب طوال الوقت مفكّرا بما جرى للناس. وكيف أن فقدان ذاكرة جعلهم متوحّشين.

في الصباح ودّعوا الشيخ والعجوز تاركين لهما المكان. لا طعام ولا شراب في هذا المكان الذي بالكاد نفعهما لقضاء ليلة واحدة.

قال الشيخ بعينين مرتجفتي الرموش: ألن تعودوا إلى هنا؟

- لا أظن يا والدي!

قال مبارك بينما ابتسم سعيد لهما دون كلام. سبقهما الفتى إلى الخارج.

وضع كلّ منهما سلاحه على منكبه واستقبلوا أشعة الشمس بأعين مرتخية. أصوات الحياة اضطّرت في الشوارع. وهب نسيم غريب لم يجربوا مثله من قبل.

غير النسيم وأصوات البشر كانت هناك أشياء مضحكة أيضاً تحدث في الشارع. مثل ذلك الحذاء الذي يمشي ويصيح بأنه أفضل من يصلح الأحذية في البلد. وعلى مقربة من الحذاء رأوا كلباً مسلوخاً جلده ومعلقاً على طرف شجرة.

– من تراه يفعل ذلك؟ قال مبارك.

حتى منتصف الظهيرة لم يجدوا سوى كسرة خبز عند رجل مستند بظهره على الحائط. كيف يمكن أن تستمر الحياة هكذا؟ قال مبارك. واساه سعيد: لم يبق على بيتك إلا القليل. مرت سيارة مسرعة تجرّ جثة رجل ميت. قام الفتى سامي بالتصويب على السائق. فمنعه مبارك بيده.

تأمّلوا المشهد بخزي. شعر سعيد بالعار من هذا العبث الإنساني. هل فقدان الذاكرة يمكن أن يصيب المصير الإنساني بمقتل؟

قال الرجل:

– الأخبار مزعجة بالتداعي. كل الأمم تتداعي على العرب. أخذ الفرس مجموعة والأترك مجموعة واشتد القتال بينهما وعيونهم على بقية الوطن العربي.

– هل نحن غناء؟ كغناء السيل. قال مبارك.

– ألا تعلم؟ قال سعيد.

– أنصحكم بالتريث. لا تسيروا في الطرقات في مثل هذا الوقت. قال الرجل الذي كان يرتدي بدلة لونها أزرق كحلي وقميص وردي ولكن بلا كرافته. نبرة صوته تشير إلى أنه كان مديراً في إحدى الشركات المهمة. عيناه ضيّقتان ووجهه المستدير يوحى بالصرامة. لا سيما صلغته التي تستضيف بضع شعرات يتلاعب بها الهواء.

دخلوا إلى أحد البيوت المهجورة أخذاً بنصيحة الرجل.

رأى سعيد من نافذة البيت المهجور زوال شمس منتصف الظهيرة ودخول وقت العصر.

نام الضوء في الأفق. هل ينام الضوء؟

تساءل سعيد في سرّه. نعم كما ننام نحن. ردّ على نفسه.

## الفصل السابع عشر

أبطال وجبناء!

غنى مبارك أغنية فيروز حبيتك. فوجئ سعيد بأن صوت صديقه الشرطي جميل.

حبيتك تنسيت النوم يا خوفي تنساني

حابسني براه النوم وتاركني سهراني

أنا حبيتك حبيتك أنا حبيتك حبيتك

بشناقلك لا بقدر شوفك ولا بقدر احكيك

بندهلك خلف الطرقات وخلف الشبايبك

قال له سعيد: شرطي ويغني!

مبارك: سابقا! أنا اليوم ميليشيا.....

ضحكا.

أين تعلّمت هذه الأغنية؟ سأله سعيد.

سمعتها من جهاز راديو عندما كنا في المتحف قبل أن تنتشر هذه الميليشيات.

فرك سعيد يديه وهو يقول:

– هل تعلم. تمنيت أن تكون معي سجادة أفرشها على عشب حديقة. ومعني... من معي؟

– لا أدري. ربّما أنت. فتغنّي لنا. ماذا ستغنّي يا مبارك أيضا؟

واصل سعيد:

لو كان للشارع عينان. لو استطاع الشارع أن يتكلم. كيف يمكن أن يكون هذا مشروع لأحد؟ إفقادنا  
ذاكرتنا؟ يا للهول!

قال مبارك:

– أتخيل بأن ما يحدث لنا مجرد حلم وسنصحو منه قريباً. وربما نحن الآن في حلم رجل مسكين. سيصحو فنتبخر من رأسه!

– لا أدري لماذا هذه الليلة طويلة جداً يا أخي؟ قال سعيد وهو يتأمل السماء.

استأنف مبارك الغناء وسعيد يهتز نزقاً وطرباً، لكنه توقّف فجأة. خيل له بأنه رأى ظلاً يركض وحده. انعكس ضوء إنارة الشارع على إنسان يركض.

قال مبارك:

– إن فقدت الذاكرة فستغني على ليلاك فقط!

– لا تكن واثقاً جداً من حكمك. فهناك فوضى عارمة. فوضى في المشاعر والأحاسيس والذاكرة. أعتقد بأن لهذه الأغنية ذكرى داخلك. أنت لم تحفظها عندما كنا في المتحف.

هزّ مبارك رأسه موافقاً. في جسده دبيب ذكرى وحنين. سرح في الأفق البعيد المطعم بالنجوم وشعر عندها بأن قلبه منقبض. يدق بسرعة. تتهافت عليه كوابيس الرؤيا. وجه امرأة يطل عليه من بين النسيان. نظر إلى صديقه ورفيقه في هذا التيه، فرآه يزوب في خياله. انطلقت حنجرته في الغناء وهو لا يعرف من أين أتته هذه الأغنية:

بكرة بيخلص هالكابوس

وبدل الشمس بتضوي شمس

وعلى أرض الوطن المحروس

راح نتلقى يوماً ما

نزلت دموع سعيد على خديه. كأنهما تعارفاً للتوّ. بكى طويلاً. وبكى مبارك معه. لا أحد منهما لمس السرّ الأعلى والأخفى داخل كلّ منهما. حتى غفا كل منهما في كمّه. بينما ظلّ الفتى ممسكاً برشاشه بيد وسيجارته باليد الأخرى ينظر إليهما من بعيد ولا يتدخل.

في الصباح واصلوا سيرهم نحو غرناطة المفقودة حتى الآن.

الشمس كانت دافئة. والجوّ صحو. لا ريح. ولا نسيم. صباح مثالي. فكّر سعيد في نفسه. لو لم يحدث ما حدث لنا لكنت ربما أستمع بهذا الصباح في مقهى محبّب إلي نفسي. وهو يحدث نفسه رأى شبانا يوقفون طفلاً ممسكاً رقيّة وهو يرفعها بكلتا يديه فوق رأسه. توقّف هو ومبارك وسامي يراقبون المشهد. التفت سامي: – هل هي لعبة أم ماذا؟

- لا نعرف سنرى.

ردّ مبارك وقد رمى سيجارته على الأرض وداسها بحذائه وارتجف طرفا شاربيه.

بدأوا يصوبون على الرقيّة وهو يرتعش من الخوف. كادت إحدى الرصاصات أن تنقب رأسه. قال أحدهم للصبي: تصبّر! هذا أفضل من أن نقتلك!

- ألا نتدخل؟ صرخ سامي.

نظر أحدهم إليهم شزرا وقال مهددا بنبرة مقزّزة: هيا أغربوا عن وجوهنا.

- لماذا تفعلون بهذا المسكين هكذا؟ صرخ سامي.

- اغربوا وإلا اعتقلناكم.

- بأي تهمة؟ قال سامي.

- تهمة التآمر على أمن الدولة ومحاولة قلب نظام الحكم وتقويض الهوية الوطنية والتغريب بين المذاهب. قال أحدهم وهو يبصق على الأرض.

بدا كل واحد منهم لديه وجه رجل مافيا. لا يتكلم كثيرا. يقتل كثيرا. رفع أحدهم ياقة قميصه إلى أعلى وهو يتوجّه إلى سامي الذي كان يصرّ على أسنانه من الغيظ أكثر من رفيقيه الميّت فيهما الإحساس كما توهم في نفسه.

- ابتعد من هنا يا فتى!

- لو انطبقت الأرض على السماء فلن أتحرك. ردّ الفتى سامي بحنق وهو يضيق عينيه ويصرّ على أسنانه. نظرة عينيه أكبر من عمره بكثير.

- ما اسمك؟

- ابن آدم!

أنزل سعيد ومبارك رشاشيهما. فتحا الزناد. سمع الرجل صوت طقطقة الرشاشات.

- اسمع. دع الفتى وشأنه. قال سعيد بغضب.

- وأيضا هذا الصبي. قال مبارك أيضا.

– وإلا ماذا يحدث؟ ردّ الرجل الذي يشبه وجهه وجه رجل مافيا.

– سنبيدكم! هذا ما سيحدث. قال سعيد ورفع فوهة رشاشه.

– ستلاحقكم الدولة وستعدمون. قال الرجل وهو يصرّ على أسنانه وينفخ أوداجه بينما استعد رفاقه للأسوأ.

– أية دولة؟ لا يهم. قال مبارك وفي عينيه شرر لم يخرج منذ أن حلّ هذا الوباء وقد هيا أصبعه على الزناد وحركه لكي يراه الرجل.

أشار رجل المافيا بيده لرفاقه من المتهورين. أنزلوا مسدّساتهم صاغرين. أطلقوا الصبي. تفل مبارك على الأرض بقوة كما لو أن إذعانهم له قد أحبطه. كان يريد أن يقتصّ منهم. عنصرية وسط هذا الوباء؟ صعد التساؤل إلى قمة رأسه بلا سلّم. وبدت تعابير وجهه متحجرة كأنها عقاب إلهي. كأنه على وشك الانفجار. تراجعوا جميعا بما فيهم سامي الذي صرخ: أبطال وجبناء!

هذه كانت أول مرة يرى فيها سعيد الشخصية الحقيقية لصديقه مبارك.

## الفصل الثامن عشر

### الرجل الذي بلا اسم

أخذت السماء ترتب نجومها. وتضع القمر قبعة لها تتعكس عليها أحلام السهاري.

الحياة بلا حبّ أرض حرب متروكة لجثتها. لكن على الأرض الجميع يردد: لقد صدرت الأوامر من أعلى. كل واحد يتمنى الجحيم للآخر. ماذا لو أدخلهم الله جميعا في جهنم.

قال الرجل الذي لا اسم له: ألا تشعر بوجود أم أو أب لك؟

ردّ سعيد الذي يتم مناداته باسم اختاره له مبارك في مركز الشرطة، وهو يمسّد لحيته التي أصبحت الآن بطول قبضة يديه:

□  
أشعر بوجود الله.

لاك الرجل الذي فضّل ألا يكون له اسم قطعة خبز كأنه أورد بلا أسنان:

إذا كان الواحد منا بلا اسم ولا يتذكر شيئاً فهل يشعر بأن له أباً وأماً؟

فضّل هذا الرجل منذ بداية الوباء ألا يكون له اسم. نادوني بالرجل الذي بلا اسم! قال لكل من حاول أن يقترب منه. أو يسأله عن اسمه.

أيها الرجل الذي بلا اسم. هل تحب؟ أعني هل أحببت؟ سأله سعيد.

اللعنة يا رجل. هل تظن بأنني مجنون؟ كل ما في الأمر بأنني نسيت اسمي. رجل أصيب بالنسيان.

ولكنني أحب!

قهقهه الرجل الذي بلا اسم وقد بانّت سنّ مكسورة من أسنانه.

كيف تحب وأنت بلا ذاكرة؟ تائه وسط هذه الفوضى.

لأنني أحببتها بعد انهيار ذاكرتي. بعد وصول هذه الفوضى. اعترف سعيد كأنه أمام كاهن يأخذ منه الاعتراف المتأخّر.

وأين هي الآن؟ سأله الرجل الذي بلا اسم وهو يوسّع عينيه بلطف.

لا أدري. بدا التأثر على وجه سعيد كأن كلمة لا أدري صدرت للتوّ من كهوف عميقة في اللاوعي.

ألم تحاول أن تعثر عليها؟ قال الرجل مواسياً أو متظاهراً بذلك.

أين يمكن أن أعثر عليها وسط فوضى النسيان هذه؟

نهض سعيد من أمام الرجل الذي بلا اسم. اتكأ على الجدار المتقرب بالرصاص كأنه تجويف جمجمة رجل ميّت. أشعل سيجارة واقترب من النار المشتعلة. صار وجهه ذهبياً. والقمر فوق رأسه تماماً مثل قبة. قال الرجل الذي بلا اسم وقد تحوّلت عيناه إلى عيني ذئب تلمع السنة اللهب فيهما:

لا أعرف كيف أحببتها وأنت بلا ذاكرة واسمك مستعار..

بالغريزة! قال مبارك وهو يتأهب للوقوف وقد استقرّ الحديث مشاعره نابشاً قبر ذكريات أهال الزمن عليها تراب النسيان. في ذهنه تردّد اسم سعاد. أما أطفاله فلا يعرف أسماءهم بعد.

في وقت سابق من هذا اليوم عثروا على هذا الرجل في الطريق. عرفهم. قال لهم بأنه كان يراقبهم منذ الصباح الباكر. وقدم لهم نفسه باستهزاء هكذا: بلا اسم. محسوبكم من تنظيم داعش. أعني جمعوني من الخلاء وألبسوني هذا الزي وقالوا لي أنت من تنظيم الدولة. سحراً. فهقه مثل رجل مجنون وهي يلقي عليهما هذا الاعتراف.

توجّسوا منه خيفة في البداية. وسخروا من فكرة أنه من تنظيم معادي. فكل التنظيمات وهم. وهم أيضاً وهم. ولا أحد في هذه التنظيمات والميليشيات ينتمي حقاً إليها. لكن هذا الرجل الساحر سرعان ما أسرهم بشخصيته العجيبة.

– لماذا هربت منهم؟ سأله مبارك؟

ضحك بلا اسم. ثم أنهى ضحكته بشهيق طويل كأنه يخرج إلى الحياة لأول مرة إلى البرية:

– ذات يوم قتلوا أمامي رجلاً كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وحين سألتهم لماذا قتلتم هذا الرجل؟ قال لي الأخ الأكبر في الدولة، هكذا يسمّي نفسه، بأننا في حالة حرب وهذا الأخ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر!

ضحك الرجل بلا اسم بهستيريا وأضاف: هل رأيتم عبثاً وخراء أكثر من هذا؟

– هؤلاء مجانين أكثر ممّن كنا معهم؟ قال سعيد وهو يشعر بالغبثان.

– هل انضممت إليهم وأنت فاقد الذاكرة؟ سأله سامي.

- كل من تراه من المسلحين هم من فاقدى الذاكرة.

- هل تمزح؟

- لا أمزح.

- إذن من الذي يحرك كل هؤلاء الآلاف ويحوّلهم إلى قتلة؟ سأل سعيد بوجه غمرته الدهشة الأليمة.

قال الرجل بلا اسم وهو يضحك وترنّ ضحكته في الجو كمثل بارع في فيلم تاريخي مأساوي:

- تأتيهم الأوامر من فوق. ولا أحد يعلم ممن بالضبط. وتراهم متحمسين كما لو كانوا قد ولدوا من رحم حزب المحافظين أو من داعش أو من هذا الحزب أو الفصيل. لكنهم في الحقيقة فاقدو ذاكرة! كأنهم مغنطون. لا يعرفون من أضلّهم. ولا لماذا؟ بعد فترة يبدأون بالعود على القتل. ثم يدمنونه. ثم يعشقونه!

- اللعنة! قال مبارك الذي توّهجت عيناه بالتقرّز.

- بالمناسبة هل مرّ عليكم تنظيم الفضيلة؟ أو ميليشيا السماء السوداء؟ سأل الرجل بلا اسم.

- لا. ما هذه الأسماء؟ قال سعيد.

- وهناك غيرها كثير. كلها تنظيمات دموية لا ترحم. وربما كانت أسوأ.

جلسوا قرب بناية مكتظة بالناس غير المكترئين بأحد. لم تعد تبدو عليهم علامات الخوف. الاعتياد قانون جديد للحياة. لم يعرفوا إن كانوا مجانيين أو فاقدى ذاكرة فقط. تساءل الفتى سامي: لماذا لا نرى أطباء أو ممرّضين يجوبون الشوارع لعلاج هؤلاء المرضى؟

- أيّ مرضى؟ فهم عديدون؟ سأل مبارك؟

- ألسنا مصابين بوباء؟ لماذا لا يعالجوننا؟ قال سامي.

- من يعالجنا إذا كان الأطباء والممرّضون مصابين مثلنا بهذا الوباء؟ قال الرجل بلا اسم.

- ليسوا كلهم. قال سامي.

- وهؤلاء القتلة أليسوا مصابين بالوباء؟ كيف يتحرّكون؟ ألا يحتاجون إلى رأس غير مصابة؟ رأس تقكّر، وتندكّر وتعطي الأوامر بناء على ذكريات ومعرفة بما يجري في هذا العالم لأهداف محددة!

قال سعيد الذي ترقب إجابة من رفاقه. لكنهم أصيبوا بعجز جماعي. لا أحد لديه إجابة على تساؤلات كبيرة مثل هذه.

ظلوا صامتين وقتنا طويلا، كل منهم أوقد في رأسه فرن جحيمه من هلوسة الأسئلة.

مرّ فوج من البشر بلباس غريب. قال سامي بلطف وكياسة:

– من هؤلاء؟

– رجال دين يحثون الناس على السمع والطاعة. قال الرجل بلا اسم وهو يدفع نملة بغصن شجرة يابس. أسرعت النملة للاختباء خلف علبه بطاطس فارغة. ربما تساءلت هذه النملة ما الذي يحدث مع هؤلاء البشر. لماذا لا يتوقفون عن إيذائنا حتى وهم وسط هذا البلاء العالمي؟ مجانيين! ربما قالت النملة.

– ما معنى السمع والطاعة؟ سأل سامي الذي استقرّه أن يسمع مثل هذا المصطلح دون أن يعرف معناه.

– هو شيء أسوأ مما نحن فيه! قال الرجل بلا اسم وقد نقل غصنه اليابس من يد إلى أخرى عابثا بالنملة التي سئمت منه ومن عصاه.

– هل هناك ما هو أسوأ مما نحن فيه؟ قال سامي.

– نعم. السمع والطاعة!

قال الرجل بلا اسم ثم أضاف وهو يضحك على النملة التي هربت منه إلى فتحة المجاري:

– رجل الدين والملحد أخطر كائنين على وجه الأرض. ولا أعتقد بأن هذا البلاء قد حلّ بنا إلا عن طريقهما! وكلاهما لا يستمرّ نفوذه إلا بالسمع والطاعة!

استغرب سامي. تحوّلت ملامح وجهه إلى تقاطع طرق. عقله لا يستوعب هذه المقولات الكبيرة. صمت الآخرون. اختاروا أن يستقروا في هذا الحي. فهناك أحياء مكتظة بالبشر وأخرى مهجورة، وثالثة مليئة بالمتاريس والحرب، ورابعة بالمشانق والجثث. ما هذه المدينة؟ قال سعيد في سرّه وهو ما يزال غير مستوعب تماما ما يحدث من حوله متسائلا: هل هي نهاية هذا العالم؟ وإذا كانت هي حقاً نهاية العالم فلماذا اختار العالم أن ينتهي بهذه الطريقة حيث لا أحد يعرف أحدا ولا أحد يعرف أين هو ولا أين أهله؟ كل واحد مقطوع من شجرة. لا أخ ولا أب ولا أم ولا زوجة ولا ولد؟ نهاية تشبه يوم القيامة. نهاية غريبة لا تحترم حتى الخصوصية.

وشينا فشيئاً مات الليل.

مع بزوغ الفجر عققعت الغربان كما لو كانت غاضبة من شيء ما ناشرة نكهة مأساة في الأفق المرفرف في العيون.

فتح الرجل الذي بلا اسم عينيه وهو يتمتم:

- يا إلهي! أنا حتى لا أتذكر أن لدينا غربانا في هذه البلاد. هل كان لدينا غربان في هذه المدينة؟ من أين جاءت؟

- نم يا رجل! لدينا كل شيء لكننا كنا في غفلة!

ردّ عليه سعيد دون أن يفتح عينيه.

- غفلة؟

- الغفلة متاع الغرور!

خفق صوت من بعيد.

## الفصل التاسع عشر

### الذئاب والصامتون

لماذا تعلق عنوان بيت مبارك في رأسه مثل سنارة صيد أكثر من تعلق مبارك نفسه بهذا العنوان.

هجس في نفسه وهو يمشي مع مبارك والفتى سامي والرجل الذي بلا اسم. الرجل الستيني الذي التقوه تائهاً في المدينة قال لهم بأن غرناطة لا تبعد سوى خمسة كيلومترات إلى الشمال، ولكن الأرض بدت كما لو أنها لا نهائية.

– حتى المسافات تطاولت. خدعتنا. تمتم.

رفع رأسه عن الأرض فالتقت عيناه بعيني رجل في الشارع المليء بأشجار باهتة حزينة لا يهتز لها غصن. بدأ كل منهما ينظر إلى الآخر ويقول في نفسه: أعرف هذا الرجل! أين رأيته من قبل؟ تجاوزا بعضهما البعض بأمطار، ثم توقف سعيد فتوقفت المجموعة. عاد مرة أخرى إلى الرجل الذي عاد هو الآخر إلى نقطة التقاء على رصيف مشبوه.

أنا أعرفك!

بادر سعيد متلهفاً:

وأنا أعرفك!

قال كل منهما للآخر. أنا أعرفك. وأنا أعرفك. يالها من كلمة منقرضة. كلمة اختفت تماماً في هذه البلاد. حيث يُفترض لا أحد يعرف أحداً. هكذا حولهم العالم إلى معزولين عن بعضهم البعض وراء جدران من الاسمنت. أو في شوارع باهتة بلا إحساس. لا أحد يعرف الآخر حقاً. والآن حتى بالوجوه لا أحد يعرف صاحبه.

كيف يمكن أن يكون هذا؟ من أنت؟

لو كنت أعرف لأخبرتك!

وأنت؟

أسماني صديقي هذا سعيد. لكنني لا أذكر اسمي الحقيقي.

بالحدس أعرفك. أنا متأكد من ذلك.

وأنا متأكد من ذلك أيضاً.

هل يمكن أن تكون صديقي؟ أخي؟ ابن عمي؟ من أنت؟

لم يرد الرجل. وقف ساهما كمن تعرض لحادث إطلاق نار في كمين لجيّ.

جلسوا على الأرض بينما الناس في حالة ذهول وسكر وتهويمات جغرافية وتاريخية. مثل طائرات ورقية تلعب بها الريح الأليمة.

– لم يضللونا على نحو كامل. أليس كذلك؟ ماذا تعتقد أنت؟

– بل هذا هو التضليل التام.

– إلى أين نحن ذاهبون؟

شرح لهم سعيد بأن مبارك لديه عنوان. وأن لديه أسرة. ربما كان هذا طرف خيط لحيواتهم جميعاً. ضحك الرجل الذي بلا اسم وقال على الأقل لدينا هدف الآن من تسيبنا في هذه المدينة التي فقدت رشدها. أشعل مبارك سيجارة وهو يحك رأسه. أضاف الرجل الذي قال لهم بأنه لا يعرف عن نفسه سوى أنه بلا هوية:

– قالوا بأنهم قبل عصر التغميم هذا كان هناك أناس بلا هوية.

– هل كانوا من فاقدى الذاكرة؟ تساءل مبارك باستنكار. كيف ذلك.

– لا. كانت ذاكرتهم قويّة جداً على نحو مفرط لذلك لم يمنحهم هوية! قال الرجل الذي بلا هوية.

– هل هذه هي الحقيقة؟ قال مبارك.

– الحقيقة! أية حقيقة؟ هي دوماً محجوبة عنك. قال الرجل الذي بلا هوية.

– على أية حال، جميعنا الآن لامنتمون. ردّ مبارك وهو ينظر في أفق الفراغ الشيطاني الذي صنعه هذا الوباء.

حدث صمت طويل بينهم. توقّفوا عن الكلام.

قال مبارك: هل يمكن أن أقول لكم شيئاً غريباً حدث لي البارحة؟

– قل يا رجل. ماذا تنتظر؟ قال الرجل بلا اسم.

- حلمت بأن ذاكرتي قد عادت إلي! قال مبارك.

- مرحى يا رجل! ردّ الرجل بلا اسم.

- ستكون أسبقنا إلى الذاكرة. قال الرجل بلا هوية.

- أنا لا أريد ذاكرتي. أشعر بأنني أفضل بلا ذاكرة. النسيان العليل هذا هو استشفاء. قال مبارك.

- هل كنت طبيبا يوما ما؟ سأل الفتى سامي.

- لا أدري. قال الرجل بلا هوية.

- كلامك كلام دكتور! قال سامي.

أطال الرجل الذي بلا هوية النظر في وجه سعيد. شعر سعيد بنظرات الرجل لكنه قال في سرّه:  
شيء طبيعي. يريد أن يتذكّر. لينته يتوصّل إليّ. إلى اكتشافي.

بدت فكرة أن المدينة ليست سوى أسماء شوارعها منطقية لهم. تعبر عن طبقاتها الاجتماعية. كانت  
أسماء الشوارع غريبة.

- متى وضعت هذه الأسماء؟ تساءل سعيد.

خرجت لهم ذئاب من كلّ مكان. فأمسكوا برشاشاتهم تحسّبا. من أين أتت هذه الذئاب؟ قال مبارك.

انتشرت كلّ أنواع المخدرات كما لو كان تجار المخدرات يختبئون خلف جدران الذاكرة حتى إذا  
انهارت جدرانها خرجوا كالذئاب المسعورة. هل الذئاب هي هؤلاء التجار؟

- لكنها لا تهاجمنا؟ أليس ذلك غريبا؟ قال الرجل بلا اسم.

- الذئاب لا تهاجم الإنسان الفاقد للذاكرة! ردّ الرجل بلا هوية.

- قلت لك بأنك دكتور أو عالم أو حكيم! قال سامي.

مرّ قطيع من الذئاب بالقرب منهم. أحد هذه الذئاب كثر عن أنيابه. كان مخيفا. ثم مضى ملتحقا  
بالقطيع الذي كان يتلّفّت كما لو كان دورية أمنية راجلة.

أخرج الفتى سامي صرة فيها بعض المعلبات وخبز ونشرها على الأرض. شعروا بالجوع كما لو  
كانوا قد نسوا أمر الطعام. ارتموا على الأرض معه وشرعوا يأكلون.

جاءت شاحنة من بعيد فأرعبتهم. استعدوا لها بالرشاشات. لكن الشاحنة التي توقفت غير بعيد عنهم نزل منها رجال يرفعون صورة كبيرة. سرعان ما علّقوها على الجدار.

– صور من هذه؟ ومن هؤلاء الرجال؟ قال الرجل الذي بلا هوية.

– إنها صور رئيس تم زرعها في كلّ مكان. لا يبدو عربيًّا؟ ماذا يحدث؟ وفي منطقة أخرى صورة رئيس آخر ولا يبدو أيضاً عربيًّا؟ ما الذي يحدث؟ هل سقطت الذاكرة من هذه الأمة؟

تساءل الرجل بلا اسم. أضاف:

– لماذا تقاسمنا الأعداء والأصدقاء؟ لماذا لا يوجد رئيس عربي؟ لماذا على أرضنا رؤساء غير عرب؟ إنهم الهكسوس الجدد!

قال مبارك:

– سيكون علينا إذن أن نتعلم اللغتين الفارسية والتركية ولغة الهكسوس.

– من هؤلاء الهكسوس؟

– طامعون أبديون في أراضينا.

– وربما اللغة الروسية!

تذكّر مبارك الحدود الروسية.

قال له الرجل بلا اسم: هل نحن فارون وهاربون أم عائدون أم راحلون؟ لم أفهم شيئاً!

أضاف: هل نحن في حالة حرب أم احتلال أم غزو أم استعمار أم ديكتاتورية؟

مرت مجموعة من الناس. لم تلتفت إليهم. لم تحاول الكلام. قال الرجل الذي هناك احتمال كبير بأنه يعرف سعيد: إنهم الصامتون!

– ماذا تعني؟ سأل مبارك.

– هؤلاء أصيبوا بالصمت بعد فقدانهم الذاكرة! ردّ الرجل بلا هوية.

– مرض؟ تساءل مبارك.

- ربما! وربما صمتوا بإرادتهم. فهم لا يتكلمون أبدا. رأيت ميليشيا تعذبهم لكي يتكلموا. لكنهم لم يتكلموا! قتلوا بعضهم أمامي. قال الرجل بلا هوية وسط صرخات اندهاش من الجميع.

- ماذا؟ هل هم حزب الصامتين؟ قال سعيد.

- لا نعرف. إنهم فقط صامتون لا نعرف لماذا؟ ردّ الرجل بلا هوية.

- ليس كل من له فم يتكلم. فهذه الأسماك لا تتكلم.

قال سعيد وهو يدير ظهره لهم كأنه يفتش في محفظة سرّية في يده عن إجابة مقنعة. التفت إليهم وهو يضحك:

- الصمت دواء كما الكلام دواء. صمتهم دواؤهم ونحن دواؤنا الكلام!

## الفصل العشرون

### بييع ذاكرته

قدم رجل بدين إلى حد ما وشعره طويل من آخر الشارع. وضع كرسيًا كان مطويًا وصاح يعرض ذكرياته للبيع:

– اقترب. اقتربي. اقتربوا. هيا اشتروا ذاكرتي. إنها للبيع. لن تجدوا ذاكرة حديدية مثلها.

شدّهم الفضول من تلايبب عقولهم الحيرى: رجل يبيع ذاكرته! تساءلوا. وصرخ سامي: هل هذا حقيقي؟

اقترب منه رجل ربة. منكباه عريضان مثل غوريلا. وجهه شاحب وعيناه غائرتان مثل بئرين في صحراء. وشفته مبيضتان من الشمس، أو من العطش، أو من الكوليرا. يده مثل يدي ميكانيكي. بادره الرجل:

– أعطيك ذكرياتي كلها. هيا. سأرويها لك. مقابل لا شيء. فقط مقابل ألف دينار ونسيان!

اقترب آخر:

– لماذا لم تفقد ذاكرتك؟

– لا أعرف. لنقل إنه الحظ السيء! فأنا كما تقول أمة شوم منذ ولادتي!

قهقهه مضيفا وهو يلوح بيده ويشير بها نحو رأسه وجسده: تعرّضت لخمس حوادث ولم أمت! أنظروا! واضعا يده فوق خده الأيمن حيث بدت علامة شجّ طولّي.

شاهدوا ما يحدث من بعيد. اكتفوا بتقييم المشهد. أخيرا حظى بشرف الذاكرة شاب في الخامسة والعشرين أخرج نقودا من جيبه ومدّ يده للرجل صاحب الذاكرة. عدّ النقود بلهفة. حسنا. تعال معي. انتحى به جانبا على الرصيف وسط جمهور كبير يتفرّج متحمّسا لنتائج هذه الصفقة. ثم بدأ يروي له بصوت يردد:

– لا تحزن يا فتى على هذه النقود. فأنا سأنقل إليك مرضي. أعني مرض الذاكرة. وسأخذ منك النسيان.

أضاف الرجل ذو اللحية البنية، ذو الذاكرة:

- لحسن الحظ أن الجرحى لا يكون وإلا لامتلأت الأرض بالدموع. وكما قال لوركا فإن كل رصاصة تقتل اثنين. ذلك كان في زمن الغرناطي لوركا. في زمننا هذا فإن الرصاصة تقتل أسرة بأكملها.

بدا الفتى غير فاهم لأي شيء. حك رأسه. كان شعره كثا وناعما ومنسدلاً على جبهته التي بدأت تبرق تحت أشعة الشمس. لكزت كلمة الغرناطي قلب مبارك الذي بدأت روحه تتوجّه إلى غرناطة حيث يسكن الأمل. أمله وأمل مجموعة الضائعين التي تسير معه. لاحظ الرجل ذو الذاكرة ذلك فيادر لطمأنته: اطمئن يا فتى. كما قلت لك سأروي لك كل ما لا تعرفه عن هذا العالم قبل أن تحل عليه هذه اللعنة.

مات أبي قبل هذه اللعنة بيومين فقط. لم يكلف الأرض شيئاً طوال أكثر من خمسين عاماً. مات خفيفاً كما يقولون. صادفت اللعنة اليوم الأول من العزاء. وإذا بالناس يتفرقون كما الأغنام وقد هاجمها قطيع ذئاب.

ابتسم ابتسامة صفراء بانث أسنانه من خلالها وقد اسودت من التدخين. اسئل سيجارة من عليه معدنية وفتح فمه، كأن الابتسامة قد ذكرته بها. مدّ واحدة للفتى: دخن يا فتى. فلا أحد يعرف متى يموت الواحد منا. ربما بعد دقائق. إن متّ وسط هذه اللعنة فلن يعرفك أحد وأنت ميت. لن ينعاك أحد. لن يندبك أحد. لا سراق للعزاء. كذلك السراق الذي حظي به أبي ليوم واحد. ستموت خفيفاً كالريشة أو كالتفاهة. ولن يشعر بك أحد. لن تثقل على أحد بموتك. كما كان البدون يشنقون أنفسهم فلا أحد في هذا العالم يكثرث بهم. أو لموتهم. يموتون في المنافي. وفي الأوطان. سيان.

من هؤلاء؟

- آها... ولماذا دفعت إليّ إذن كل هذا المال؟ لهذا الجواب.

نشجع الفتى:

- هل نحن في حالة حرب أم نسيان؟

- في حالة حرب بالطبع!

□  
من يشن الحرب علينا بالله عليك؟ أنا لا أفهم شيئاً. أنا ضائع.

- لا أحد يعرف من أنت أيها الفتى إلا أنت. ولا حتى هذه الميليشيات التي تداعت علينا من كل أرجاء الأرض. لا أحد. ولا حتى كل أجهزة الأمن. بينما يفرّ العرب بالقوارب القاتلة إلى العدو.

تساءل الفتى في سرّه: ألا يوجد لدينا جيش؟

عرف الرجل بماذا يفكر الفتى: يقال بأنه تبخّر! نعم. الجيوش تبخّرت.

هل نحن هبطنا أول مرة على هذه الأرض. هذه الأرض لا نعرفها ولا تعرفنا وأخر شيء تصورناه أن نموت على يد شقيق فاقد الذاكرة.

الريح تهب من كل مكان. معلنة اجتماع الآثام والشورور كلها على هذه الأرض. يمشي الكثير من الناس في الشارع، كما ترى. وأشار بيده إلى الناس في الشارع. لكنهم لا يعرفون بعضهم البعض. صاروا أغراباً. لا يابّهون ببعضهم البعض. ولا ينجدون بعضهم البعض. اذا كنت تسأل عن الغربة. فالكل هنا غريب.

مرّ رجل مسرعاً وفي يده قدر يغلي:

– لقد رأيت الشيطان! لقد رأيت الشيطان. لقد رأيته!

– وكيف عرفت بأنه الشيطان؟ سأله الرجل ذو الذاكرة.

– هو قال لي ذلك وكانت ذاكرته حديدية. يقول بأنه يتذكر أول يوم هبط به على الأرض بسببنا!

قال الرجل ذو الذاكرة للمشتري: آها. كما تسمع بأذنيك. حتى الشيطان رمى علينا وسوسته وبلاويه! جاء الفرس والروم لاحتلالنا. لا، لن يقولوا لاحتلالنا بل لانقاذنا. ممّن؟

من أنفسنا!

ضحك ضحكة قاتلة.

– نحن مرضى! قال الرجل ذو الذاكرة.

– ما مرضنا؟ سأل المشتري.

– الانشطار!

## الفصل الواحد والعشرون

### رقصة زوربا اليوناني

هَبَّ ضجيج في الساحة المقابلة. نقل سعيد رشاشه من الكتف الأيمن إلى الأيسر. ما هذه الضجة؟  
سأل متحفظاً.

كان هناك جمهور غفير يخرج من الشوارع الفرعية. سأل مبارك أحد المارة وقد استعد هو الآخر  
للأسوأ: من هؤلاء؟

– لا شيء. هؤلاء هم جمهور السينما. سينما النعيم. خرجوا الآن من السينما. انتهى الفيلم.

– أي فيلم؟

– زوربا اليوناني!

أكمل الرجل طريقه وهو يكلم نفسه كالممسوس.

كان الجمهور يرقص رقصة اليوناني زوربا تحت المطر. غير أنه الآن لا يوجد مطر.

– من هو زوربا اليوناني؟

لم يعرفه أحد منهم.

لم يصدقوا ما يسمعون أو يشاهدون. قال الرجل الذي بلا اسم: هناك أناس متحررون. مجموعة  
ترقص وتغني في الشوارع غير مكترثة البتة بما يحدث في داخل هذا الوطن أو في العالم من بلاء  
ووباء، وهي تصرخ: يسقط التخلف والرجعية والشرعية. لقد رأيتهم من قبل. كانوا فرحين بما يحدث  
لنا ولهذا العالم.

– أين رأيتهم؟ سأله مبارك.

– في ميدان البحر!

– هل هناك ميدان اسمه البحر؟ سأل سامي.

– عندما كنت سجيناً لدى إسرائيل وخرجت كان أول ميدان مررت به اسمه ميدان البحر. رأيت مثل  
هؤلاء الناس هناك. ردّ الرجل بلا اسم وهو يتحسّر.

لا أحد فهم لماذا يتحسّر رفيقهم.

– هل سجنّت في إسرائيل أعني فلسطين المحتلّة؟ سأله مبارك.

– كنت أتسكّع في وطني فحسب. أو هكذا ظننت. فجأة وجدت نفسي في قبضة جنود. ملابسهم غريبة. عرفت بأنهم ليسوا منا. قالوا لي بأنني دخلت إلى الحدود الإسرائيلية. لم أصدّق في البداية بالطبع. بقيت هناك أسبوعاً كاملاً وهم يقنعونني بأنني تجاوزت الحدود. حدود الوطن العربي. وعندما تأكدوا من أنني فاقد الذاكرة تركوني محذرين من عودتي مرة أخرى: في المرة القادمة لن تخرج! قالوا لي. ثم رموني ثانية في الوطن العربي كما يرمون المخلفات الننتة.

– هل تعرف. أنت محظوظ أنهم لم يضمّوك إلى الجيش الإسرائيلي كما تفعل هذه الميليشيات. قال مبارك.

□  
لم يفكّر بهذا السيناريو المرعب من قبل. هزّ رأسه اقتناعاً وامتناناً لله. شعر بنسائم غريبة تهبّ على روجه.

قال سعيد لمبارك مستغلاً ضجيج الناس في الساحة: سأصارك بشيء. ما فائدة أن يموت الإنسان وهو مكتوم بسر؟ ربما نُقتل في أية لحظة. لذا عليّ أن أصارك بشيء؟ أعتقد يا أخي بأنني أحببت سارة.

انتظر أن يرى على وجه مبارك ردّة فعل. ابتسم مبارك. أضاف سعيد: خيالي لم يكف عن تذكرها. طيفها. ابتسامتها.

– لم ترها سوى بضعة أيام وتحبها كل هذا الحب! قال مبارك.

– نعم. وأكثر مما تتخيل.

ازداد عدد الراقصين في الساحة. وتعالّت الأصوات.

اعترف سعيد جعل مبارك يتألم. يتذكر صوت الرجل الذي قال له بأنه عمه. والد زوجته. وأن لديه زوجة وأطفالاً. هناك صوت طفل يستدعيه، وطفلة.

انتبه الرجل بلا هوية إلى أن الساحة خاوية من الأشجار. فقط في الوطن العربي يأبى الإنسان أن يشجر مدينته وميادينه وساحاته. لا بدّ أن يغير الله سبحانه وتعالى المناخ حتف أنف هذا المعتوه. يأبى أن يعدل فيزلزل الله الأرض تحت أقدام هذا المغرور.

كان هناك سيدة تدخن في البلكونة بلا اكتراث، وهي تراقب رقصة زوربا اليوناني. كأنها اعتادت كل يوم في مثل هذه الساعة على مشاهدة هذا العرض. تحتها بالضبط رجل ينظف طاولات مقهاه.

قال الرجل بلا اسم في سرّه: يا ترى ما نوع سجاثرها؟ لكزه الرجل بلا هوية: بماذا تفكّر؟ لا شيء مهم. غياب الذاكرة جعلني أشغل رأسي بأشياء وتساؤلات تافهة. هل ترى تلك السيدة هناك؟ لا تقل لي بأنك تفكّر بمصاحبتها؟ قال الرجل بلا هوية مقهقها. هل ترى. ذهب فكري إلى بعيد. أنا أفكر بنوع سجاثرها.

- يا رجل! صاح الرجل بلا هوية.

- أنظر إلى دخانها. دخان هائل. هذا الدخان أهم لديّ من السيدة!

- عجائب! ردّ الرجل بلا هوية ومضى ملتحقاً بالآخرين.

اقتربوا من المقهى. أراد سعيد أن يحظى بفنجان قهوة. أشار سامي إلى الرجل الذي ينظّف المقهى. جاء رجل وترجّل من سيارته حائلاً بينهم وبين صاحب المقهى. قال له: فنجان قهوة. رد صاحب المقهى: بألف دينار! قال الرجل: لا أملك كل هذا المبلغ.

- إذن أترك سيارتك مقابل فنجان قهوة!

تدخّل الرجل بلا اسم: هل تقايض سيارتك بفنجان قهوة؟ لا تكن أحمقاً. هل أنت من فاقد الذاكرة؟

- نوعاً ما!

- لكنّ ذلك كثير.

مال على الرجل بلا اسم وبدأ يسرّه في أذنه:

- لا تهتم سأسرق واحدة في نهاية هذا اليوم. ذلك أفضل من أن يسرق الضياع رأسي!

- هل تسرق هذه السيارات؟

- سأسرق أخرى وسأتي بها غداً إلى هنا لكي أحتسي فنجاناً آخر. أضاف وهو يضحك: سأترك لك فنجاناً!

- هل أنت لص؟

- أنا؟ هل أبدو لك لصاً؟ لا... أنا تاجر. فقط أبادل السلع بين الناس حتى تسير الحياة وتستمر. من تعتقد اللص؟ إنه تاجر وحسب. لا تسير الحياة بدونها.

أضاف الذي له سلوك لص لكنه ليس لصاً بل تاجر يبادل السلع بين الناس:

– أنظر إلى هؤلاء جميعا كم واحد منهم كتب له قدر سعيد؟

فاحت رائحة القهوة. أصيب سعيد بالدوار.

رأوا إنسانا يوزع ثروته في الشارع. قال بأنه فقد ذاكرته واكتشف عندما صار بلا ذاكرة، بأنها كثيرة وعبء عليه ولا يحتاج إلا إلى القليل منها فتبرع بالباقي. آخرون قالوا بأن الرجل جاءته ثروته عندما صار في الشيخوخة وكان يريد الزواج من حبيبته لكنه كان فقيرا حتى توفيت. وعندما جاءته هذه الثروة انتقم من موتها أو غيابها بتوزيعها. ما حاجته لثروة لم تجمعها بحبيبته؟ الثروة والموت؟ يا إلهي. فظيع!

شعر سعيد بأن الإنسان بلا ذاكرة يقول الهراء ولن يؤاخذه أحد على هرائه. آه أيها العذر لبيتك معي!

تمتم الرجل بلا اسم: بلاد شاسعة ليس فيها قرية واحدة جميلة. يا للتعاسة!

اقتربت امرأة وهي ترقص.

قال رجل له جسد رياضي: لقد جُنت امرأتي وخرجت لا أدري إلى أين؟

– ولماذا جُنت؟ سأله سامي.

– ذهبت إلى ساحر لكي يسحرني لكنه كان قد سمع عني الكثير. أخذ منها المال وسحرها وصار يقول لكل من حوله بأن هذه المرأة لا تستحق هذا الرجل!

أين يمكن أن أعثر عليها وسط فوضى النسيان هذه؟

– أنا متأكد بأنك ستعثر عليها مع الذين يرقصون هناك. رقصة زوربا اليوناني.

– زوربا اليوناني؟

– ألم تقل بأنها مجنونة؟

– نعم.

– إذن ستجدها مع هؤلاء المجانين.

كل واحد منا رجل ميّت. علّق الرجل بلا اسم.

## الفصل الثاني والعشرون

تثبّت من موتك

تثبّت من موتك.

وسّع الرجل الذي بلا اسم عينيه ثم ضيّقهما وهو يقرأ هذه العبارة الغريبة على جدار بناية عملاقة.  
قال سعيد الذي كان يقف خلفه: أمين.

– من قائل هذه العبارة؟ سأل مبارك.

– أمين! ردّد الرجل الذي بلا اسم ضاحكا.

– تثبّت من موتك! قال سعيد.

– أخشى أن أكون ميّتا ولا أدري! ههههه. ضحك الرجل بلا ذاكرة بصوت مرتفع.

تعالت أصوات النوارس فوق المدينة. رفع سعيد رأسه. قال في سرّه: من أين تأتي هذه النوارس؟ لا أظن أن البحر قريب من هنا! لكن أصوات النوارس استمرت وأحدثت جواً مريحا.

رأوا رساما يثبّت لوحة على حامل خشبي ويرسم. التفّ حول اللوحة لكي يراها جيدا. كانت اللوحة عبارة عن سواد حالك.

– ما هذه اللوحة؟

انتبه الرسّام لوجود سعيد. واصل الرسم:

– في الليلة الفائتة خرج السكارى بمسحات كبيرة يريدون أن يمسخوا الظلام. أردت أن أرسّم الظلام من الذاكرة قبل أن يمسخه هؤلاء السكارى! اللعنة عليهم. لا يتركون شيئا على حاله.

سكت سعيد. مثل هذه الإجابات لا يستحسن أن يأتي بعدها أية ردود. شعر بأن أصوات الأجنحة تذكر بالألم واللذة معا. اللذة والألم التأوهات نفسها. ملصقات وإعلانات في كل مكان، بخاصة عن هذا الهراء: الرسم.

هذا الرجل مجنون كما لو أن السماء قذفته إلى هنا مباشرة. قال سعيد لمبارك.

الرسام وضع دفترًا كبيرًا لتسجيل ملاحظات الزوار، لكن عندما انحنى سعيد على الدفتر وجد عنوانًا غريبًا: أكتب عمّن فقدته وسأرسم مشاعرك لاحقًا.

أراد أن يطلب منه أن يرسم الفتى سامي بدلًا من رسم الظلام لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، فقد يكون هذا الرسام مجنونًا تمامًا. فقدان الذاكرة يجب ما قبله.

فجأة تصاعدت أصوات انفجارات على مبعدة قدرها سعيد بكيلو متر واحد فقط. اختبأ الكثيرون. بينما انحنوا هم تحت شرفة. قال رجل وجد نفسه مندسًا بينهم: هذا القصف يأتي من الحدود الإسرائيلية!

واصل الرسّام الرسم تحت القنابل.

هذه هي الحياة فيها التماسيح وفيها الأسود والضباع والخراف. هناك شعوب مستباحة. وإنسان مستباح طوال التاريخ. وهناك إنسان محمي طوال التاريخ.

حين التقت سعيد رأى رأس سامي وقد اخترقته رصاصة. خرّ صعقا من المنظر. الرصاصة اخترقت جمجمته من ناحية الصدغ.

لم يستطع أن ينطق اسمه. رأى مبارك عيني سعيد فالتقت هو الآخر. كان سامي يغرق في موته. لم يعد أي منهم يهتم بالرصاص أو بالقذائف.

في الدقيقتين الأخيرتين قبل أن يسمعوا أصوات الانفجارات ثم الاختباء قال له سامي: انتابني شعور للتو بأنني سأرى أمي قريبًا جدًا. قلبي يدق بسرعة. وأمسك مكان قلبه براحة يده. قال له مبارك: إن كنت شعرت بذلك فإنك سترأها يا فتى في أقرب مما تتوقع.

ثم حدث ما حدث. وتلقى سامي تلك الرصاصة من قناص خفي لم يره أحد.

شعر مبارك الآن بأن حدس الفتى سامي كان حقيقيًا. على الرغم من الذاكرة الغائبة. الأم أقوى من الذاكرة. سيرأها في الجنة.

قال الرجل الذي بلا هوية والماء يقطر من لحيته لأنه كان يشرب الماء من زجاجة مياه معدنية حين انطلق القصف: على هذا المنوال لن يصل أحد إلى الشيخوخة. قال مبارك في سرّه: ولا إلى غرناطة!

ردّ الرجل الذي بلا اسم: ها أنذا في سنّ الشيخوخة!

ردّ الآخر: أنت وصلت إلى هذا العمر قبل أن تفقد الذاكرة. أعني قبل أن يحلّ هذا البلاء.

توقف القصف.

سحبوا جثة الفتى سامي بحذر، فهم لا يزالون يخشون من القناص الخفي ومطلق القنابل. حملوه إلى مكان آمن. لم يعرفوا بعد ماذا سيفعلون بالجثة.

– سندفنها على الرصيف. يوجد هنا بعض النباتات. وسنضع ما يشير إلى القبر.

قال سعيد. أضاف مبارك: الآن تثبت من موته!

سحب مبارك ساعة الفتى سامي من معصمه ووضعها في يده.

بعد أن انتهوا من دفنه. قال الرجل الذي بلا هوية: عندي رهاب من الغرق!

– يا رجل أين البحر لتغرق؟ قال الرجل بلا اسم.

– لا أخاف من الغرق في مياه البحر.

سكت.

– قل. كيف ستغرق إذن؟ سأل الرجل الذي بلا اسم.

– أخشى ألا تصدقني! قال الرجل الذي بلا هوية.

– قل ولا تخش شيئاً.

– أخاف أن أغرق في خيالي!

قطع حديثهما أصوات تتعالى من بعيد في أحد الأزقة: بالروح بالدم نفديك يا رئيس!

– أي رئيس هذا؟ سأل الرجل بلا اسم.

– لا أعرف. قال الرجل بلا هوية.

دخلوا في زقاق آخر فرأوا رساما على ملابسه كل ألوان الطلاء يرسم في الهواء الطلق. قال الرجل الذي بلا اسم:

– تفضلوا هذا مجنون آخر. كأن العالم كان ينتظر أن يفقد الذاكرة لكي يصبح مجنوناً.

وسّع عينيه ثم ضيقهما مباعداً ما بين رجليه. وهو يرى امرأة تقود ميليشيات:

- من هي؟

قال رجل عابر:

- قائدة النسويات! إنها خطيرة. ابتعدوا عنها.

حين خرجوا من الزقاق إلى شارع كبير رأوا سائق سيارة كلاسيكية يستعرض بها في الساحة وسط تصفيق الجنود كما لو كانوا يصفقون لفتاة حسناء عارضة أزياء.

في الجانب الآخر أناس يتحلّقون حول رجل بلحية قالوا بأنه كاتب حائز على جائزة نوبل. حظّه العاثر جاء به إلى البلاد قبل يوم واحد فقط بدعوة من وزارة الثقافة لكي يلقي محاضرة عن الجانب الفانتازي في أعماله الروائية. وهو عالق الآن بها لأن السفر قد ألغى إلى كل دول العالم.

- لا شك بأنه في وسط الفانتازيا!

قال سعيد وهو يتصفح ذاكرته لعلّه يجد فيها ما يشير إلى هذا الكاتب.

بدا الكاتب غير مهتم بالعودة إلى بلده. أو الهروب من هذا الوباء. هو يريد أن يعيش هذه التجربة ويكتبها. غير أنه متخوف من شيء واحد فقط. أن يفقد ذاكرته قبل أن ينتهي من كتابة هذا الغثيان.

سأل أحدهم الكاتب الذي قيل بأنه نرويجي:

- ماذا كنت ستفعل لو كنت يهوديا؟

- سأقتل الفلسطينيين!

- ولو كنت فلسطينيا؟

- سأقتل اليهود!

بدت الحيرة على وجه السائل وهو يسمع الإجابة باللغة الإنجليزية. لكن الكاتب عاجله:

- يبدو أنك لا تعرف بأن القتل ضروري لكي تتقدم الحياة!

سأل الرجل الذي بلا هوية: يبدو أن هذا الكاتب الحائز على جائزة نوبل لديه كرامات. أول ما وصل إلى البلاد فقدنا الذاكرة. قل لي لماذا لم يصب بهذا المرض؟

- لا أدري. قال الرجل الذي بلا اسم.

- أعتقد بأن هؤلاء الأجانب يأخذون مصلا ضدّ هذا الوباء! قال بلا هوية.

- والآن إلى أين؟ سأل مبارك.

- لنكمل المسير إلى غرناطة. قال سعيد.

لاحظ سعيد بأن المدينة كأنها مصابة بالزكام. الكثيرون يعطسون ويمسكون بمناديل يخبؤون خلفها أنوفهم المحمرّة. هل هذا وباء جديد؟ قال في سرّه.

امتلأت قلوبهم بالظلام الذي بدأ يأتي من بعيد، من مخابئ سرّية.

- يقال بأنه فيروس جديد بدأ بالانتشار!

- فيروس جديد؟

- نعم يصيب الرئة فيقتل الإنسان.

بعد حوالي ساعتين من المشي هطل الظلام وشاهدوا رجلا يقرأ القرآن الكريم وحيدا بصوت شجيّ قرب العتمة التي غمرته.

دمعت عينا سعيد.

واصلوا سيرهم ثم بعد ساعة توقّفوا. كان يجب أن يعثروا على مكان للمبيت. بدأ سعيد ومبارك يشعران بالغثيان.

- يمكن أن يرجع الإنسان إلى أرذل العمر وهو في الخامسة والثلاثين؟

قال الرجل الذي بلا هوية وكأنه يحدث نفسه.

قدحت في ذهنه فكرة.

دخلوا قبواً. هذا أفضل ما سنجد لهذه الليلة. أسرّ سعيد في نفسه. قال الرجل الذي بلا اسم: حسناً. نحتاج إلى حراسة. أنا سأبدأ ثم كل ساعتين سيأتي أحدكم. عثروا على أسمال حاولوا التدثر بها.

قال الرجل بلا هوية: لا أعرف لماذا يبيع هؤلاء الناس أنفسهم لهذه الأحزاب، أو الميليشيات أو الرؤساء؟

قال الرجل الذي بلا اسم: أنا أكبركم سنًا. سأقول لكم بأن الله لا يسمع للعبيد وقد خلقهم أحرارًا. سيقول لهم ألم أخلقكم أحرارًا؟ لماذا ارتضيتم لأنفسكم أن تكونوا عبيدا لمن خلقتهم مثلكم؟

– إنها عقوبة إذن!

– أليس كذلك؟

– نعم. سيقول لهم أنتم كالأنعام بل أضلّ. هل تعرف لماذا؟ لأن الأنعام لا تكذب ولا تتناقق ولا تغدر ولا تقوم بأعمال الشعوذة. إذن أنتم أضلّ.

فكّر سعيد ساهما وهو يدخّن. فكّر طويلا قبل أن يقول:

– من الغريب أنك لا تعرف البيضة الفاسدة حتى تكسرها، فتفوح الرائحة الكريهة. وها قد انكسرت بيضة المدينة. بل بيضة العالم بسبب هذا الوباء.

قال مبارك:

– أنت تقول بأنك لا تعرف هويتك أو بلا هوية. من أنت؟

– ولماذا يهم من أنا؟ ربما كنت إنسانا وهميًا. مجرد وهم.

ردّ الرجل الذي بلا هوية وهو يغمض عينيه مستريحاً من هذا العالم.

## الفصل الثالث والعشرون

### الوصول

بزغت الشمس. وأطل الصباح برأسه من خلف جدران البنايات الشاهقة على امتداد الأفق.

سمعوا صياح الديكة. حتى الديكة في هذا العالم الغريب موجودة. لا يبدو بأنها أصيبت بالوباء لأنها ما تزال تتذكر وقت الأذان. الحيوانات بلا شرور ليست مثل الإنسان. قال مبارك الذي عاد للتوّ من الخارج: الجوّ مشمس اليوم ودافئ. سنعثر على شيء نأكله. قال لي رجل بأن بيننا وبين غرناطة شوارع قليلة فقط. ربما كيلو مترواحد لا أكثر. هيّا!

تمطّوا في أماكنهم وارتفعت أياديهم إلى أعلى، كأنها نباتات تدفع نفسها إلى أعلى وسط التربة.

الرجل الذي بلا هوية كان أكثرهم شعورا بالكسل. التقطوه من أحد الشوارع فالتحق بهم دون أن يطلبوا منه ذلك. صار الإنسان وسط هذا الوباء يبحث عن أيّ جماعة لكي يلتحق بها وينتمي إليها. الكل يبحث عن انتماء وسط حمى اللانتماء.

في الشارع كان هناك هرج ومرج. لم يتبيّنوا سببه بعد. وصلت شاحنات فتوقّفت في الساحة الكبيرة. نزل منها جنود يحملون علماً لدولة أجنبية. وأمروا الناس بالابتعاد. ثم نصبوا الخوازيق في وسط الساحة. صاح رجل: ما هذه؟ ردّ آخر: خوازيق! لماذا؟ لمن يفتح فمه! صرخ الرجل نفسه من بعيد.

تحركوا إلى أبعد نقطة معيّنة. وبحثوا عن طعام. كانوا يشعرون بالجوع. منذ البارحة لم يأكلوا شيئاً. نظر سعيد إلى إحدى العجائز. تجلس على باب منزل صغير. ابتسمت. تقدم منها. هل نجد لديكم خبزاً وزيتاً؟

– يوجد!

لم يصدّقوا.

دخلوا إلى بيت العجوز. صور عائلتها تملأ الجدران. قال الرجل بلا اسم: من هؤلاء؟

– هؤلاء عائلتي. جميع أفراد عائلتي!

– أين هم الآن؟ لا أحد معك في البيت؟ قال الرجل بلا اسم.

– أنا الوحيدة لم أفقد ذاكرتي. لا أعرف أين هم الآن؟ تاهوا في المدينة.

دخلت إلى المطبخ. أحضرت خبزاً وزيتاً وبعض الجبن: هذا ما لديّ يا أولادي! سامحوني.

قبل سعيد رأسها: نحن جميعاً أولادك يا أمي.

أكلوا كما لو كانوا في مجاعة قديمة وهي تنظر إليهم بانتباه شديد كأنها ترى مشهداً سورياً.

قال سعيد في نفسه ربما كان الفتى سامي حفيد هذه العجوز.

قالت لهم العجوز: أيا كانت وجهتكم فلا تخرجوا الآن. انتظروا حتى الظهر. لا أعرف لماذا يفضل هؤلاء القتلة القتل في الصباح. حين يرتاحون في الظهر لتناول طعامهم أخرجوا.

– من هم يا أمي؟

– كل أجناس الأرض. تداعوا علينا. لا أعرف أسماء هذه العصابات والجماعات والأحزاب والدول. لكن يقول جيراني بأن مناصري حزب من هؤلاء قد رفعوا علمهم على الناحية الأخرى من المدينة، وهم يعدمون الناس على الهوية.

– لم تعد هناك هوية يا أمي. كل الهويات تساوت بسبب هذا الوباء. قال سعيد موضحاً للسيدة العجوز التي هزّت رأسها اندهاشاً وربما تأييداً لما قاله.

– لا أعرف يا ابني. هكذا سمعتهم يقولون. أجابت.

– ربما يعدمون أيّ عربي! يكفي أن تكون عربياً لكي تُقتل! علق مبارك وهو ينظر في أعينهم. أضاف: صعب أن تكون عربياً ولا يفكر أحد بقتلك!

بعد أن فرغوا من طعامهم. استجوبوا العجوز عن الحياة قبل أن يحلّ الوباء. لم ينتظروا الإجابة. سألتها سعيد: هل لديك قهوة أو شاي؟

– نعم!

لم يصدقوا الجواب وتسابقوا إلى المطبخ. هذه أول قهوة لهم منذ زمن طويل. مبارك وسعيد فضلاً القهوة. أما الرجلان اللذان بلا اسم أو هوية فقد فضلاً الشاي.

جلسوا بلا حركة.

لم يتحدث منهم أحد. كأنهم كانوا ينتظرون هذا الصمت.

– هل صديقكم هذا لا يتكلم؟

- ليس كل من له فم يتكلم، فهذه الأسماك لا تتكلم.

أعاد سعيد هذه الجملة. نسي أين سمعها ولا متى.

سألتهم المرأة العجوز عن أنفسهم.

قال لها الرجل بلا اسم: لا أعلم. لا أحد منا يعلم. ثم أعاد تساؤلاته نفسها التي رددتها عليهم من قبل. هل نحن فارون وهاربون أم عائدون، أم راطلون؟ لم أفهم شيئاً. هل نحن في حالة حرب أم احتلال، أم غزو، أم استعمار، أم إبادة، أم ديكتاتورية أم عقاب إلهي؟ هل نفعل أشياء سيئة أم جيدة؟

قال مبارك وهو يحتسي القهوة بتلذذ عجيب: كيف كانت الحياة قبل هذا الوباء يا أمي؟

قالت المرأة العجوز: كان كل واحد في هذه المدينة يريد أن يصبح تاجراً وحسب. تقاتلوا على الغنائم. كان هذا الحي محترماً. أصبح الآن حياً للسكرارى. تجمع فيه الأراذل والأفندية واللصوص والتجار.

تجشأ الرجل الذي بلا اسم من الشاي:

- الإنسان ضعيف. ما أسوأ أن تذله أحلامه. حتى لو ذهب إلى الجنة لطلب أن يكون لديه لاند سكيب مثل روسيا!

- هل نحن حقاً على قيد الحياة؟ تساءل الرجل الذي بلا هوية.

- يا رجل خلك محضر شر! قال الرجل الذي بلا اسم.

ضحكوا. قالت العجوز محدرة:

- جاؤوا قبل ليلتين وطرقوا بابي بحثاً عن شباب يقبلون أن يصبحوا شرطة بدوام ونص!

- كيف بدوام ونص يا أمي؟ سأل مبارك الذي شعر بأنه المعني بقصة الشرطة.

- كذبة صغيرة لا تضر وستحدث فارقاً! قالت العجوز وهي تعني هذه المجموعة من الناس التي طرقت بابها وكانوا يسخرون منها. ثم سألتهم وهي تدور عينيها بينهم:

- هل هناك ثورة تحدث عند العرب؟

- منذ أن أصبحت الخلافة وراثية لم تتجح أي ثورة للعرب. بهم مسّ شيطاني. لا يوفّقون إلى فعل شيء جيد. قال الرجل الذي بلا اسم وهو يضحك.

عند حلول الظهيرة ودّعوا العجوز وخرجوا. بدا وجه العجوز حزينا جدا وهي تودّعهم عند الباب. شعرت بألفة عجيبة معهم كأنهم أبناؤها الضائعون في متاهات المدن. قبل أن يتحركوا سألتهم:

– أليس لديكم سيارة؟

نظر سعيد إلى مبارك. السيارة الوحيدة التي عرفوها خلال هذا الوباء هي سيارة مبارك الشفروليه. بدا أنها نكأت شيئا في داخل مبارك عند ذكر السيارة. قال لها وهو يلتفت نحوها للمرة الأخيرة:

– السيارة صارت خطيرة يا أمي!

ظلّ ينظر في عينيها وهو يبتعد. أين أمي؟ هجس ملتاغاً.

غابوا في زقاق. لم تعد تراهم. ثم دخلوا في شارع آخر. كان مبارك طوال الوقت يتذكّر سيارته. أين تركها؟ هل يمكن أن يعثر عليها مجدداً أم أن أحداً قايضها مقابل فنجان قهوة. يا للهول. شعر بالحنن. مقابل فنجان قهوة!

رأوا امرأة في الشارع. قال مبارك في سرّه: تعرف الأرملة من اللون الأسود! ثم رأوا محلا لبيع التوابيت. وبالقرب منه نزل صغير للمبيت. هكذا كُتب عليه. استغرب سعيد هذا التجاور بين النزل والتوابيت. كلها للمبيت! قال في نفسه شاعرا بالضيق.

مشوا حسب ما أخبرهم الرجل في الليلة السابقة، وأيضاً الرجل الذي تحدث إليه مبارك في هذا الصباح. قطعوا حوالي تسعة كيلو مترات. تبقى لهم مسافة كيلو متر واحد لكي يدخلوا إلى غرناطة.

في الشارع الأخير تناهت إلى مسامعهم أصوات. رفعوا رشاياتهم. ومشوا بين الأزقة بحذر. انطلق رصاص مجهول باتجاههم. كان كميناً من مجموعة مسلحة لا أحد يعرف انتماءها لمن!

فتحوا بدورهم النار عليها. استمر إطلاق النار لمدة ربع ساعة. طلب مبارك من رفاقه أن يغطونه فلا بد من تغيير الموقف وكسر الجمود. قال ذلك وفي خياله غرناطة القريبة جداً.

قتل مبارك ثلاثة من المجموعة قبل أن تتسحب.

كان الرجل بلا هوية يتأمل تصرفات سعيد بإعجاب. حركات قائد بالفطرة. ثابت الجنان. يحسن التصرف. يمسك بزمام الأمور ويتحدث بطريقة تشفع له وتمنحه حظوة أسرة. كان يريد أن ييوح له بمكنوناته ويقول له أيضاً بأنه متأكد من أنه يعرفه من قبل. كما أن شجاعة مبارك الكبيرة كانت تبهره أيضاً.

مشوا حتى اجتازوا الكيلومتر المتبقي لدخول غرناطة. فجأة سقط مبارك. كانت رصاصة قد اخترقت خاصرته لكنه لم يخبرهم لئلا يتوقفوا عن رحلتهم إلى بيته. حملوه وساروا إلى العنوان. أمسك سعيد

بجرح رفيقه في هذه المدينة.

رأى جثة معلقة ومكتوب على لوح كرتوني أبيض تم ربطه عليها: هذا مصير الخونة!

لم يعرف خان من؟

عَلقت في ذهنه هذه الجملة: تثبت من موتك! قال بصوت مسموع قليلا كأنه يحدث نفسه وحسب:  
القتل عامل مساعد لفهم الحياة. كان يحدث مبارك: لا تنس أول يوم رأيتك فيه. لا تنس يوم كنا معا  
في المستشفى. سنعثر على سيارتك. طبعاً سنصل إلى عائلتك بعد قليل. هل تتذكر يوم كنت تغني لي  
في الساحة أغنية فيروز؟ استمر سعيد يهذي لكي لا يموت صديقه مبارك الذي كانت رأسه تهتز  
يمينا وشمالا دون أن يعني هذا بأنه كان يصغي إلى هذيان صديقه. ودون أن يعني بأنه ما يزال على  
قيد الحياة.

عندما وصلوا إلى الشارع نظروا يتأكدون من العنوان. على مبعده خطوات من المنزل وضعوا  
مبارك على الرصيف.

خرجت فتاة تنظر من المنزل المجاور. التقت عيناها بعيني سعيد. ثم نقلت عينيها نحو الجسد الممدد  
على الأرض. شعر سعيد على الفور بأنه يعرفها. كان قلبه ينبض بشدة كما لو كان أحبها في زمن ما  
قبل الوباء.

## الفصل الرابع والعشرون

### النهاية

خرجت امرأة من البيت المفترض بأنه بيت مبارك وصرخت:

– من هذا المسكين؟ يا عين أمه وزوجته!

احتار سعيد في أمر هذه المرأة وسأل نفسه: هل هي زوجته؟ إذا كانت زوجته نجاة فإنها حتما لم تتعرّف عليه! يا للمأساة! يا لمبارك المسكين. لا وقت لدينا. يجب أن ندخله إلى البيت.

نظر أخيرا إلى الفتاة من المنزل المجاور. لم يشك لحظة بأنه يعرفها. نعم تذكرها الآن: هي الممرضة التي رآها في المستشفى. نعم هي. كيف تذكرها؟

وهو يفكر وصاحبه اللذان تبقيا معه، الرجل بلا اسم، والرجل بلا هوية، يرمقانه باحثين عن أمر يقودهما إلى داخل البيت. البيت الذي قيل لهما طيلة هذه الرحلة بأنه بيت مبارك، حيث لا بدّ لأيّ رحلة من نهاية، خرجت امرأة أخرى من البيت. رفع رأسه باتجاهها ثم شهق: سارة!

– سعيد!

كانت سارة قد فكّرت بنفس الفكرة. لا أمل بالعثور على سعيد ومبارك إلا بالوصول إلى عنوان بيت مبارك.

أمرتهم على الفور بإدخال مبارك الذي لا يعرف أحد إن كان ما يزال حيّا أم لا. حتى سعيد لم يجرؤ على وضع راحة يده على قلب صديقه الذي تحوّل في هذا الوباء إلى أحب إنسان لديه في الوجود. انتابه هذا الشعور العاصف الآن وهو يحمل صديقه. رفعوه ثم ساروا به خطوات إلى الداخل. وضعوه في الصالة. أمسك سعيد برقبته. ليس هناك نبض. التفت إليهم بعيون متفجرة بالدموع.

– مات مبارك!

اتكأ على الأريكة في مواجهة مبارك وهو يبكي. جلست سارة على الأريكة المقابلة وهي تبكي. دمعت عيون الرجل بلا اسم والرجل بلا هوية. بينما تخشبت نجاة زوجة مبارك وأولادها الذي جاؤوا يركضون لا يعرفون ماذا يدور في بيتهم. ارتسمت على شفثيها ابتسامة أم صالحة معذبة. ثم أخيرا جاء عمّ مبارك والد زوجته بشعره الأبيض ولحيته البيضاء بخطوات منتحبة.

□

إرتمى الأطفال على مبارك. وهم يصرخون: بابا! بينما قال عمّ مبارك: لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وحدها نجاه وقفت مشلولة مثل الجثة. جثة تقف أمام جثة!

ها هي أخيرا أمام زوجها. لكنه مجرد جثة لا تزال ساخنة بالحياة التي كانت تعجّ في شرايينه منذ وقت قصير فقط. صاحب هذه الجثة عاش أياما بلياليها الطويلة يفور في دمه الشوق لهذه اللحظة. وها قد بلغها الآن!

هجس سعيد في نفسه هل هاجر إلى هذا العالم قادمًا من كتب الحداد؟ الآن أصبح لدي قصة لأرويها. رفع بصره نحو سارة وهو يبكي: لم يكن من المفروض أن يقع شيء سيء. كنا على وشك الوصول. لا. كنا وصلنا إلى هنا.

قال الرجل بلا اسم:

– حتى الشيطان لا يحتمل هذا الجحيم! اللعنة كنت أظن بأنني محظوظ بفقدان الذاكرة حيث سأعيش بلا أصدقاء. ها أنا أفقد صديقا من العهد الجديد. لم أكن أظن حتى هذه اللحظة بأنه صديقي!

اللعنة أيها الموت... كيف تكشفنا بهذه السرعة!

انتهت